الدكتور شوقي أبو خليل

الأرك

بقيادة

يعقوب المنصور الموحدي

قاتلوهم حتى لا تكون فتنة



دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

شوقي أبو خليل

الأرك

بقيادة
يعقوب المنصور الموحدي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

تصوير ١٤١٣ هـ =١٩٩٣ م
عن ط ١ - ١٩٧٩ م

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق



سورية - **دمشق** - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

تصـــدير

✱ هيا المهدي بن تومرت النصر
للموحدين ، واتمه خلفاؤه سياسيا وحربيا .

بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام المجاهدين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد ..

نتناول في هــذا الجزء من « المعــارك الكبرى في تاريخ الإسلام » ، أحداث معركة الأرَك بقيــادة أبي يوسف يعقوب المنصور ، الذي أوصل دولة الموحِّدين إلى أوج شهرتها وهيبتها وقوتها . وإن دارس تاريخ الموحِّدين الذين قاموا على انقــاض المرابطين يلمس أن هاتين الدولتين المغربيتين تتشابهان كثيراً في أمور عديدة ، أهمها :

١ ـــ الدولتان كان الجهاد أساس قيامهما وحياتهما ، فبرع الطرفان في حروبهما في الأندلس والمغــرب الأوسط ، فسجَّل المرابطون نصر الزَّلاقة العظيم ، وسجل الموحِّدون نصر الأرَك الأعظم .

٢ ــ حياة الدولتين كانت قصيرة ، إذا ما قورنت بأعمار الدول ، فدولة المرابطين دامت ١١١ سنة هجرية فقط ، من : ٤٣٠ الى ٥٤١ هـ « ١٠٣٨ ــ ١١٤٧ م » ، ودولة الموحِّدين دامت ١٢٧ سنة هجرية ، من : ٥٤١ الى ٦٦٨ هـ « ١١٤٧ ــ ١٢٦٢ م » .
وكلتا الدولتين ــ في هذا العمر القصير ــ مرَّتا بدور عظمة ، وعهد ذهبي ، تربَّع في دور عظمة المرابطين يوسف بن تاشفين ، الشخصية الإسلامية الملتزمة ، وتربَّع في عصر الموحِّدين الذهبي أبو يوسف يعقوب المنصور ، ومن بعدهما بدأ الضعف والانهيار .

٣ ــ أسباب سقوطهما متشابهة أيضاً . فقد سقطت دولة المرابطين باتساع نفوذ الفقهاء المالكية واختلال الأوضاع في المغرب والأندلس ، وسقطت دولة الموحِّدين بسبب مشاكل افريقية . كما كان نصارى الأندلس من أهم عوامل سقوطهما بعد معركة حصن العِقَاب .

٤ ــ اعتنى الموحِّدون والمرابطون ، بانشاء المدن والمساجد والمستشفيات والمدارس ، وشجعوا العلوم ، وبنوا الحصون والقناطر ، وجرّوا المياه الى المدن . لقد ترك المرابطون مدينة مراكش العاصمة القديمة لكل المغرب ، وترك الموحِّدون مدينة الرِّباط « رباط الفتح » عاصمة المغرب اليوم .

٥ ــ وكلتا الدولتين نشأتا في المغرب الأقصى ، وتوسعت كل منهما شرقاً باتجاه تونس وليبية ، وجنوباً الى السنغال والنيجر ، وضمَّتا الأندلس بعد تشتت شمل أهلها « ملوك الطوائف » ، واستنجاد الشعب والعلماء بالمرابطين والموحِّدين .

٦ ــ ضمت الدولتان المغرب العربي تحت رايةواحدة ، وتحت سلطة مركزية ، لأول مرة أيام المرابطين ، ولآخر مرة أيام الموحّدين، ومن بعدهما لم يتوحّد المغرب مطلقاً حتى يومنا هذا .

٧ ــ كان صراع هاتين الدولتين في الأندلس متشابهاً في أخلاقه العسكرية وتصرفاته السلوكية ، تشتّل من طرفهما بالرقي الحضاري ، والتقدم العلمي ، والتسامح الديني ، وبالبعد عن الغدر والخيانة ، وتخريب الممتلكات والزروع أو القتل الجماعي .. وتمثّل من جانب الإسبان بالجهل والفوضى والتعصب الصليبي الأوربي والتخريب الكامل للمتلكات والزروع . مع قتل جماعي للمدنيين الآمنين في كثير من الأحيان .

ويمكن القول بدقّة علمية ، إن الإسبان النصارى اتبعوا سياسة « الأرض المحروقة » في معاملة المسلمين ، وشتان بين سياسة المسلمين وسياسة النصارى الإسبان !!

٨ ــ وتتشابه الدولتان في تكوين فرق الجيش وعتاده وتنظيماته . ومنحت الدولتان الأسطول عناية خاصة ، فكانت قطعة أيام المرابطين وأيام الموحّدين تزيد على أربعمائة قطعة ، سيطرت سيطرة تامة على الجزء الغربي من البحر المتوسط ، وعلى شواطىء البرتغال . وهذا أمر طبيعي ، فمجال عمل الدولتين الرئيسي كان في الأندلس ، فهما بحاجة الى أسطول ضخم لنقل العتاد والرجال بين المغرب والأندلس ، وهو في الوقت نفسه قادر على حماية شواطىء الدولة .

٩ ــ حكَّم الطرفان أمور دولتيهما الى الشرع الحنيف ، وكان الالتزام التام هدفاً ومسعى ، ما عدل عنه الطرفان ، إلا في أواخر عهديهما وبشكل جزئي ، وعندها بدأ الانهيار .

١٠ ــ تمتَّعت الدولتان باقتصاد متين ، ونهضة صناعية وتجارية وزراعية، وكسبت سكتاهما قيمةوسمعة ممتازة في المحيط الدولي آنذاك .

وأخيراً ..

تشابهت الدولتان بأن أساس نشوئهما مصلح ديني ، كوَّن البنيان الروحي للدولة ، فكان عبد الله بن ياسين للمرابطين أبا روحياً ، وكان المهدي بن تومرت الأب الروحي للموحدين .

فكيف نشأت دولة الموحِّدين ، ومن المهدي بن تومرت ، وما أفكاره ؟ وكيف استطاع أبو يوسف يعقوب المنصور الموحِّدي تحقيق نصر الأرَك العظيم ؟

فإلى المادة التاريخية على بركة الله .

دمشق : ٢٩ جمادى الاولى ١٣٩٩ هـ
الموافق : ٢٧ نيسان ١٩٧٩ م .

شوقي أبو خليل

* * *

دَولةُ الموَحِدين

✱ في ظروف حرجة اجتاحت العالم الاسلامي ، تمخض المغرب العربي فكانت دولة الموحدين العظيمة .

سقطت دولة المرابطين عام ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م بسبب الصراع العنيف المستمر ضد عدوان الإسبان ، الذي كلّفها الكثير . وبسبب ظهور المهدي بن تومرت وبثّه تعاليمه المعارضة لفقهاء المالكية ، الذين انصرفوا بدراساتهم الى العناية والمبالغة بالفقه المذهبي وفروعه مما أوصلهم إلى قلة العناية بمصادر الشريعة الإسلامية ، القرآن الكريم والسُّنَّة النبويَّة الشريفة ، وهذا ما أثار العلماء المخلصين ، فدعوا الى التصحيح ، وإلى نبذ الشوائب والرجوع إلى صفاء العقيدة الاسلامية ، والفهم الصحيح للتوحيد ، سمَّت هذه الجماعة من المسلمين نفسها «الموحِّدين» ، وكان هدفهم العودة الصحيحة إلى القرآن والسُّنَّة ، لتجديد قوى الأمة على أسس سليمة صحيحة[1] .

وقبيل قيام دولة الموحِّدين عام ٥٤١ هـ ــ والتي دامت حتى

(١) راجع خاتمة كتاب « الزلاقة » ، واسباب سقوط المرابطين في « التاريخ الاندلسي » صفحة : ٤٥٥ .

٦٦٨ هـ / ١٢٦٢ م ــ تطوّرت الأحداث في العالم الإسلامي تطوّراً خطيراً •

ففي المشرق قامت إمارة فارس وخوارزم وكرمان وأذربيجان وأرمينية على أنقاض دولة السلاجقة ، كما قضى صلاح الدين الأيوبي على دولة الفاطميين في مصر ، بعد حكم دام أكثر من قرنين، علماً أن الصليبيين بسطوا سلطانهم أثناءها على سواحل بلاد الشام •

وآلت الخلافة العباسيّة ببغداد الى حالة من الضَعْفِ كبيرة ، وانتهى أمرها على يد التتار، وقتل آخر خلفائها « المستعصم بالله » سنة ٦٥٦ هـ •

وفي الشمال الافريقي سلّط الفاطميّون البدو العرب على الزّيريين ، فعاثوا بالبلاد طولاً وعرضاً ، ففقد البربر سيطرتهم على المغرب ، كما استولى الافرنج الصّليبيّون على مدينة المهدية •

أما الأندلس •• فقد عادت إلى فتنها ، واستقلّ بعض قضاتها بمدنهم ، وتوغّل النصارى فيها حتى بلغوا أقصى الجنوب، علماً أن الغرب ــ الذي كان يدعم نصارى إسبانية ــ مازال يتخبّط في جهله وفوضاه ، ولم يكن قد تهيّأ بعد لنيل نصيب يذكر في ميدان الحضارة •

في هذه الظروف ، كان المغرب العربي يتمخّض عن ميلاد دولة جديدة ، هي دولة الموحّدين ، التي تشكّلت من قبائل

« المَصَامدة » الذين قطنوا جبال الأطلس[1] ، وإلى إحدى قبائل المصامدة ـ قبيلة هرغة ـ ينتسب المهدي بن تومرت ، الـذي قرّر اسقاط دولة المرابطين « الملثَّمين » ، وهذا وإن لم يحقّقه في حياته ، فقد قام به خلفاؤه . لقد مات والموحّدون لم يفتحوا بعد بلداً واحداً ، ولكن تعاليمه رسخت في قلوب أتباعه ، حتى أصبح النصر مضموناً للموحّدين ، الذين هيَّأهم المهدي روحياً ، وحققه من بعده خلفاؤه سياسياً وحربياً . فدور المهدي دور روحي في شكله وظاهره ، وسياسي حربي في جوهره ومضمونه .

فمن المهدي بن تومرت ؟!؟



(١) قبائل المصامدة منها : « دكالة ، هرغة ، تين ملل ، وريكة ، ركراكة ، أيلانة، بنووازكيت ، اصادن ، غمارة ، رهون » . راجع « المغرب عبر التاريخ » ج : ١ ، ص : ٢٦٠ ، والمصامدة قطنوا جبال الاطلس منذ عهود سحيقة ، امتدت فروعهم من ساحل الاطلسي الى برقة ، وتدخل منطقة السوس ودرعة في مواطن المصامدة .

المهدي بن تومرت

«٤٨٥ - ٥٢٤ هـ»

الامام ابو حامد الغزالي لابن تومرت:
« سيكون لك شان عظيم » .

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تُومَرْت ، المنْعُوت بالمهدي الهرغي ، ينسب الى الحسن بن علي بن أبي طالب[1] . وهو من جبل السوس في أقصى بلاد المغرب . ونشأ هناك وتلقّى ثقافته الأولى ، ثم جاز البحر إلى الأندلس طلباً للعلم في قرطبة والمَرِيّة ، ثم ارتحل الى المشرق طلباً للعلم ، فانتهى الى العراق ، واجتمع بأبي حامد الغزالي والكيا الهراسي والطُّرْطُوشي وغيرهم . ويقول ابن أبي زرع : إن المهدي بن تومرت لازم الغزالي ثلاث سنوات ، وبشّره بأنه سيكون له شأن عظيم . وعاد من المشرق الى المغرب سنة : ٥١٠ هـ بعد دراسة دامت حوالي عشر سنوات، متأثراً بتعاليم الغزالي أكثر من أية شخصيّة أخرى .

---

(١) نقل صاحب وفيات الاعيان ، في الجزء الخامس ، صفحة : ٤٦ ، نسب ابن تومرت على الشكل التالي : محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار ابن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهما ، ثم قال : والله اعلم .

وخلال مكوثه في المشرق حجّ وأقام بمكة فترة قصيرة ، حصل فيها طرفاً صالحاً من علم الشريعة والحديث النبوي وأصول الفقه والدين .

امتاز ابن تومرت بفصاحة في العربية والبربرية ، مع ملكة خطابية ممتازة ، وطهر ونسك منذ طفولته ، حتى أنه أنكر على الناس عدم أخذهم بواجبات الشريعة وهو في مكة المكرمة .

وكان ورعاً ناسكاً متقشّفاً مخشوشنا مخلولقا كثير الإطراق، بساما في وجوه الناس ، مقبلاً على العبادة ، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة ، شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع ، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره ، وكان مطبوعاً على الالتذاذ بذلك متحمّلاً للأذى من الناس بسببه . ولما ناله في مكة المكرّمة شيء من المكروه من أجل ذلك ، خرج الى مصر ، وبالغ في الإنكار، فزادوا في أذاه ، وطرده حاكمها ، فركب البحر من الاسكندرية متوجّهاً الى بلاده . فلما ركب في السفينة شرع في تغيير المنكر على أهل السفينة ، وألزمهم باقامة الصلوات ، وقراءة أجزاء من القرآن العظيم ، ولم يزل على ذلك حتى انتهى الى المهدية إحدى مدن افريقية ، وكان ملكها يومئذ الأمير يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي .

« ولما وصل الى المهدية نزل في مسجد مغلق ، وهو على الطريق ، وجلس في طاق شارع الى المحجّة ينظر الى المارة فلا يرى منكراً من آلة الملاهي ، أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها،

فتسامع به الناس في البلد ، فجاؤوا إليه ، وقرأوا عليه كتباً من أصول الدين[1] » .

ولما بلغ خبره الأمير يحيى استدعاه مع جماعة من الفقهاء ، فلما رأى سَمْته وسمع كلامه ، أكرمه وأجلّه وسأله الدعاء ، فقال له : أصلحك الله لرعيتك . ولم يقم بعد ذلك بالمهدية إلا أياماً يسيرة ، ثم انتقل الى بَجَاية ، فجلس للتعليم والوعظ والارشاد ، فطرده واليها وأخرج منها الى بعض قراها واسمها « ملالة » ، فوجد بها عبد المؤمن بن علي القيسي . فسأله : أين قصدك ؟

فقال عبد المؤمن : الشرق .

فقال ابن تومرت : ماتبغي ؟.

قال : أطلب علماً وشرفاً .

فقال ابن تومرت : وجدت علماً وشرفا وذِكْراً ، اصحبني تنله . فوافقه على ذلك ، فألقى إليه أمره وأودعه سرّه .

ثم ان ابن تومرت استدنى أشخاصاً من أهل الغرب ، كان أولهم عبد الله الوَنْشَرِيشي[1] ، ففاوضه فيما عزم عليه من القيام ، فوافقه على ذلك أتم موافقة ، وكان الونشريشي ممن تهذّب وقرأ فقهاً ، وكان جميلاً فصيحاً في لغة العرب ولغة أهل المغرب .

---

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ج : ٥ ، ص : ٤٧ .

(٢) ونشريش : بليدة من أعمال بجاية ، بين باجة وقسطنطينة المغرب ، ويقال : جبل يقع في الجزائر .

اجتمع لابن تومرت ستة رجال أجلاد أغمار[1] سوى الونشريشي ، ثم إنه رحل إلى أقصى المغرب ، واجتمع بعبد المؤمن بعد ذلك ، وتوجهوا جميعاً الى مراكش وملكها يومئذ أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، وكان ملكاً عظيماً حليماً ورعا عادلاً متواضعا ، فشرع ابن تومرت في الإنكار على جاري عادته .

وبلغ الملك خبره ، وأنه يتحدث في تغيير الدولة ، فتحدث الى العالم الصالح مالك بن وهيب الأندلسي في أمره ، وقال : نخاف من فتح باب يعسر علينا سَدّه ، والرأي أن يحضر هذا الشخص وأصحابه لنسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلد ، فأجاب الملك الى ذلك ، وكان ابن تومرت وأصحابه مقيمين في مسجد خَراب خارج البلد ، فطلبوهم ، فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده : سلوا هذا الرجل مايبغي منا ، فانتدب له قاضي المَريّة واسمه محمد بن أسود ، فقال : ماهذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حق الملك العادل الحليم المنقاد الى الحق المؤثر طاعة الله تعالى على هواه ؟

فقال ابن تومرت : أما ما نُقل عني فقد قلته ، ولي من ورائه أقوال ، وأما قولك إنه يؤثر طاعة الله تعالى على هواه وينقاد الى الحق ، فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ، ليعلم بتعرّيه عن هذه الصفة أنه مغرور بما تقولون له ، وتضرونه به ، مع علمكم أن

---

(١) أجلاد أغمار : الجلد : الصلب القوي ، والغمرة : الشدة ، فالمعنى اذن : اقوياء اشداء .

الحجة عليه متوجهة ، فهل بلغك ياقاضي أن الخمرة تباع جهاراً ، وتمشي الخنازير بين المسلمين ، وتؤخذ أموال اليتامى ؟ وعدّد من ذلك شيئاً كثيراً .

فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه ، وأطرق حياء ، وفهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه ، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم ، فقال مالك بن وُهَيْب[1] ــ وكان كثير الاجتراء على الملك ــ : **أيها الملك ، إن عندي لنصيحة إن قبلتها حمدت عاقبتها ، وإن تركتها لم تأمن غائلتها ، فقال الملك : ماهي ؟ قال : إني خائف عليك من هذا الرجل ، وأرى أنك تعتقله وأصحابه ، وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكتفي شرّه ، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها ، ثم لا ينفعك ذلك** ، فوافقه الملك على ذلك ، فقال له وزيره : يقبح منك أن تبكي من موعظة هذا الرجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد ، وأن يظهر منك الخوف منه مع عظم ملكك ، وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه ، فلما سمع الملك كلامه أخذته عزّة النفس ، واستهون أمره وصرفه ، وسأله الدعاء .

وذكر صاحب « المغرب في أخبار أهل المغرب » أنه لما خرج من عند الملك لم يزل وجهه تلقاء وجهه الى أن فارقه ، فقيل له : نراك قد تأدبت مع الملك إذ لم توله ظهرك ، فقال : أردت أن لا يفارق وجهي الباطل حتى أغيره ما استطعت .

---

(١) مالك بن وهيب : يعود أصله الى اشبيلية « نفح الطيب ، ج : ٣ . ص : ٤٧٩ » وله تحقق بكثير من اجزاء الفلسفة . وجد كتاب الثمرة لبطليموس في الاحكام، وكتاب المجسطي في علم الهيئة بخط يد ابن وهيب وعليه حواش وتعليقات له .

وخرج ابن تومرت من عنــد الملك « علي بن يوسف بن تاشفين » وقال لأصحابه : لا مقام لنا بمراكش مع وجود مالك بن وهيب ، فما نأمن من أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه ، وإن لنا بمدينة أغمات أخاً في الله ، فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاء صالحاً ، واسم هذا الشخص عبد الحق بن ابراهيم ، وهو من فقهاء المصامدة ، فخرجوا إليــه ونزلوا عليــه ، وأخبره محمد بن تومرت خبرهم ، وأطلعه على مقصدهم وما جرى لهم عند الملك ، فقال عبد الحق : هذا الموضع لا يحميكم ، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد « تِيـنْمَلَـل[1] » ، وبيننا وبينهـا مسافة يوم في هذا الجبل ، فانقطعوا فيه برهة ريثما ينسى ذكركم ، فلما سمع ابن تومرت بهذا الاسم تجدد له ذكر اسم الموضع الذي رآه في « كتاب الجفر[2] » ، فقصده مع أصحابه ، فلما أتوه رآهم أهله على تلك الصورة ، فعلموا أنهم طلاب العلم ، فقاموا إليهـم وأكرموهم وتلقوهم بالترحاب ، وأنزلوهم في أكرم منازلهم ، وسأل الملك علي بن يوسف عنهم بعد خروجهم من مجلسه ، فقيل له :

---

(١) وتكتب « تين مل » ايضا ، أو تينمل ، وتقع القرية الان على بعد كيلو متر واحد عن الطريق الذاهب من مراكش الى رودانة عند الكيلو متر ١٠٤ .

(٢) روى كتاب « المغرب عن سيرة ملوك المغرب » كما ذكر عنه ابن خلكان في ج : ٥ ، ص : ٤٧ : أن محمد بن تومرت كان قد اطلع من علوم أهل البيت على كتاب يسمى « الجفر » . وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الاقصى بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله ﷺ ، يدعو الى الله ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغـرب يسمى باسم هجاء حروفه (ت ي ن م ل) ، ورأى فيه أيضا ان استقامة ذلك الامـــر واستيلاءه وتمكنه يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه (ع ب د م و م ن) ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فاوقع الله سبحانه وتعالى في نفسه أنه القائم بأول الامر ، وان اوانه قد أزف !!

إنهم سافروا ، فسرّه ذلك وقال : تخلّصنا من الإثم بحبسهم •

ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول ابن تومرت إليهم ، وكان قد سار فيهم ذكره ، فجاؤوه من كل فج عميق وتبرّكوا بزيارته ، وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه مافي نفسه من الخروج على الملك ، فإن أجابه أضافه الى خواصّه ، وإن خالفه أعرض عنه ، وكان يستميل الأحداث والشباب الذين في مقتبل عمرهم ، وكان ذوو العقل والعلم والحلم من أهاليهم يَنْهَوْنهم ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك •

وطالت المدة وابن تومرت خائف من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل ، وخشي أن يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك مايحوجهم الى تسليمه إليه والتخلّي عنه ، فحرّضهم قائلا : **والله إن الموت خير من هذه الحياة ، وكيف رضيتم بهذا وأنتم أضرب خلق الله بالسيف ، وأطعنهم بالرمح والحربة ؟ فقالوا : بالرغم لا بالرضا ، فقال : أرأيتم لو أن ناصراً نصركم على أعدائكم ماكنتم تصنعون ؟ قالوا : كنا نقدم أنفسنا بين يديه للموت ، من هو ؟ قال : ضيفكم ـ يعني نفسه ـ فقالوا : السمع والطاعة** ، وكانوا يغالون في تعظيمه ، فأخذ عليهم العهود والمواثيق واطمأن قلبه •

وبعد هذه البيعة حضر جباة الضرائب ، فأمر بقتلهم ، ولم يفلت منهم سوى جابٍ واحد هرب ولحق بمراكش ، وأخبر الملك بما جرى ، فندم الملك « علي بن يوسف » على فوات محمد بن تومرت من يده ، وعلم أن الحزم كان مع مالك بن وُهَيْب فيما أشار به •

ومن تينمل ـ العاصمة الأولى للموحدين ـ بث الدعاة ، ومنها توجهت الجيوش لمحاربة المرابطين ، وفيها تسمَّى بالمهدي القائم بأمر الله .

وفي سنة ٥١٧ هـ بلغ عدد جيشه عشرة آلاف رجل[١] ، بين فارس وراجل ، وفيهم عبد المؤمن والونشريشي ، وأقام هو بتينمل، ونزل القوم لحصار مراكش ، وأقاموا عليها شهراً ، ثم كُسِروا كسرة شنيعة ، وهرب مَنْ سلم من القتل ، وكان فيمن سلم عبد المؤمن ، وقُتل الونشريشي ، وبلغ المهدي بن تومرت الخبر وهو بتينمل ، فقال : « مابقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد »[٢] ، وحضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه ، فأوصى من حضر أن يبلّغ الغائبين أن النصر لهم ، وأن العاقبة حميدة فلا يضجروا ، وليعاودوا القتال، وان الله سبحانه وتعالى سيفتح على أيديهم والحرب سِجَال ، وإنكم ستقوون ويضعفون ، ويقلون وتكثرون ، وأنتم في مبدأ أمرٍ وهم في آخرة ، ورشَّح عبد المؤمن ليخلفه ، وتوفي سنة ٥٢٤ هـ أيام علي بن يوسف . وسُمِّيت هذه السنة عند الموحِّدين « عام البحيرة » ، باسم المعركة التي جرت عند مراكش وانهزموا بها كما أسلفنا .

---

(١) وامر على الجيش عبد المؤمن بن علي ، وقال ابن تومرت : أنتم المؤمنون ، وهذا اميركم ، فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم امرة المؤمنين . « راجع المعجب في تلخيص اخبار المغرب لعبد الواحد بن علي التميمي المراكشي » . اختيار د. أحمد بدر، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٨ .

(٢) جاء في « المعجب في تلخيص اخبار المغرب » ، ص : ٦٥ : فانهزم المصامدة ، وقتل منهم خلق كثير ، ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه ، فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا : نعم . قال : لم يفقد أحد .

قال صاحب كتاب « المغرب في أخبار أهل المغرب » فيحقه

آثاره تُنْبيك عن أخبــاره حتى كأنَّك بالعيان تراهُ

وقال : « قدم في الثرى وهمته في الثريا ، ونفس ترى إرا
ماء الحياة دون إراقة ماء المحيّا ، أغفل المرابطون حلّه وربطه
حتى دبَّ دبيبَ الفلق في الغسق ، وترك في الدنيا دوياً ، أنشـ
دولة لو شاهدها أبو مسلم ، لما كان لعزمه فيها بمسلم ، وكـا
قُوتُه من غَزْلِ أخت له رغيفاً في كل يوم بقليل سمن أو زيت
ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا ، ورأى أصحابه يوماً وق
مالت نفوسهم الى كثرة ماغنموه ، فأمر بضم ذلك جميعه وأحرق
وقال : من كان يتبعني للدنيا فما له عندي إلا ما رأى ، ومـ
تبعني للآخرة فجزاؤه عند الله تعالى ، وكان على خمول زيّه وبسـ
وجه مَهيباً منيع الحجاب ، إلا عند مظلمة ، وله رجل مختص
بخدمته والإذن عليه ، وكان له شعر ، فمن ذلك قوله :

أخـذت بأعضادهم إذ نأوا وَخَلَّفك القوم إذ ودعوا
فكم أنت تَنْهى ولا تَنْتهي وتُسْمع وعظاً ولا تَسْمعُ
فياحجر الشَّحْذ حتى متى تسن الحديدَ ولا تقطعُ ؟

وكان كثيراً مايُنشد :

تجرد من الدنيا فإني إنَّما خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

وكان أيضاً يتمثّل بقول المتنبي :

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في أمر عظيمِ

وبقوله أيضاً :

ومن عرف الأيام معرفتي بها . وبالناس ، روى رمحه غير راحم
فليس بمرحوم إذا ظفروا به ولا في الردى الجاري عليهم بآثم »[1]

★ لقد كان المهدي بن تومرت متأثراً في تعاليمه بالإمام أبي حامد الغزالي ، وأضاف إليه انكار المنكر بيده أو بلسانه ، ودعا الى التوحيد الخالص ، وتأويل الآيات التي تتعلّق باستوائه تعالى على العرش ، ودعا إلى اتباع مذهب الأشعرية في الاعتقاد[2] ، وأخذ عن المعتزلة بعض آرائهم ، وأخذ عن الشيعة فكرة عصمة الإمام ، وسمى أتباعه بالموحّدين ، وكان يرى أنه معدّ لتحمّل رسالة المهدوية حتى ينقذ الناس من الضـلال ، ويرجعهم الى الإسلام الصحيح .

كما حارب ابن تومرت طريقة المرابطين في الأخذ بالفروع ، وأمر بالرجوع الى الكتاب والسنّة وإلغاء دور السيادة المطلقة في الدولة لفقهاء المالكية .

وابن تومرت وإن لم يفتح شيئاً من البلاد في حياته ، فقد مهّد القواعد ومهّدها ، ورتب الأحوال ووطدها ، فكانت تعاليمه الروح الدافعة لجند قادهم عبد المؤمن فحقّق بهم نصراً سياسياً وحربياً .

---

(١) وفيات الاعيان ، جـ : ٥ ، ص : ٥٣ ـ ٥٥ .

(٢) الاشعرية : نسبة لابي حسن الاشعري ، وهي تستخدم الحجج العقلية في الدفاع عن العقائد الايمانية ، بينما سيطر على المغاربة المرابطين المذهب المالكي لا في التشريع فقط ، بل في العقائد أيضا ، فقد راوا في ذلك أيضا جدلا محرما لقول مالك : من كان دينه قائما على الجدل فلا خير فيه .

والملاحظ أن الدول التي تعاقبت على المغرب منذ الأدار
قد اتخذت هذه الصفة في نشأتها ، ومن الملاحظ أيضاً أن الدو
ماتكاد تتمركز وترسخ أقدامها ، حتى يضعف الجانب الديني
الدولة لحساب الجانب السياسي والمادي[1] •

لقد قرّر المهدي بن تومرت اسقاط دولة المرابطين بعد
نصحهم بلسانه ، فلما لم يجد انصياعاً الى ارشاداته قاومهم بحـ
السيف ، فتم ذلك على يد عبد المؤمن ، الذي تشبّع أفكار وتعا
ابن تومرت ، فكان يرى ـ كما يرى كل الموحّدين ـ
الصرامة أساس أي عمل ، حتى كان الموحّدون صارمين ع
أنفسهم ، ويرون أن سلوك الشدة وسيلة لتدعيم ملكهم ، مستغل
توقف حركة الجهاد التي تحوّلت الى حركة دفاع غير مُنَظّم •
أواخر عهد علي بن يوسف في الأندلس ، وكان لهذا أثره في الدع
ضد المرابطين الذين يمكن أن يُعْذَروا في موقفهم بالأندلس
نظراً لأن أهل الأندلس أنفسهم بدأوا يعملون لقلب نظام الحـ
بمجرد أن أنسوا من المرابطين انصرافهم الى مدافعة الموحّـد
بالمغرب ، وهكذا تظافرت العوامل لصالح عبد المؤمن ليقيم د
الموحّدين على أنقاض دولة المرابطين •

أوصى ابن تومرت الوصية التالية[2] :

استدعى ابن تومرت قبل موته بأيام رجالاً من قبائل متفر

(١) المغرب عبر التاريخ ، ج : ١ ، ص : ٢٦٦ •
(٢) المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، ص : ٦٨ وما بعدها ، طبعة وزارة الث
بدمشق •

لا يسميهم إلا اسم المصامدة ، فلما حضروا بين يديه ، قام وكـان ... خطيباً . فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمـد ... ﷺ ثم أنشأ يترضّى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ... يذكر ماكانوا عليه من الثبات في دينهم ، والعزيمة في أمرهم ، وان أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم ، ذكر من حدّ عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر ، تصميمه على الحق .. ثم قال :

« .. فانقرضت هذه العصابة ــ نضّر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيها ــ وخبطت الناس فتنة تركت العالم حيران ، والعالم متجاهلاً مداهناً ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم، ... قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه النـاس إليهم .. » .

« .. ثم إن الله ــ سبحانه وله الحمد ــ مَنَّ عليكم أيتهـا الطائفة بتأييده وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، ... قيض لكم من ألفاكم ضُلّالاً لا تهتدون ، وعمياً لا تبصرون ، لا تعرفون معروفاً ، ولا تنكرون منكراً ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، وزَيَّن لكم الشيطان أضاليل وترهـات أنزه لساني عن النطق بها ، وأربأ بلفظي عن ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة ، وبصّركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقـة ، وأعزكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم ، ذلك بما كسبته أيديكم ، وأضمرته قلوبكم ، وما ربك بظلام للعبيد ، فجدّوا لله سبحـانه خالص نياتكم ، وأروه مـن الشكر قـولاً وفعلا ما يزكي به سعيكم ، ويتقبل

اعمالكم ، وينشر أمركم ، واحذروا الفـرقة واختلاف الكلمـة وشتات الآراء وكونوا يـدا واحـدة على عدوكم ، فانكم ان فعلتم ذلـك هابكم النـاس وأسرعـوا الى طـاعتكم وكثر أتباعكم وأظهـر الله الحقّ على أيديكم ، وإلا تفعلوا شملكم الذل ، وعمكم الصّغار واحتقركم العامة فتخطفكم الخاصـة ، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفـة بالغلظة واللين بالعنف ، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلاّ على الذي صلح عليه أمر أولها وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهـاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته فرأيناه في ذلك كله ثبتاً في دينه ، متبصراً في أمره وإني لأرجو ألاّ يخلف الظن فيه ، وهذا المشار اليه هو عبد المؤمن ، فاسمعوا وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحّدين ــ أعزّهم الله ــ بركة وخير كثير ، والأمر أمر الله يقلّده من شاء من عباده » .

فبايع القوم عبد المؤمن ، ودعا لهم ابن تومرت ، ومسـح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً ، فهذا سبب امرة عبد المؤمن ، ثم توفي ابن تومرت بعد عهده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن .

فمن عبد المؤمن ؟.

* * *

عَبدُ المؤمِن بن علي

مؤسس دولة الموحدين

★ قال المهدي بن تومرت بحق عبد المؤمن بن علي : « صاحبكم هذا غلاب الدول » .

عبد المؤمن بن علي القيسي الكُومي ، نسبة الى كُومية ، وهي قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر المتوسط ، من أعمال تلمسان ، مولود في قرية يقال لها « تاجرة » ، كان ابن تومرت كلما رآه يقول : « صاحبكم هذا غلاّب الدول » . وكان ينشد أيضاً كلما رآه :

تكاملت فيكَ أوصافٌ خُصِصتَ بها
فكلنا بكَ مسرورٌ ومغتبطُ

السنُّ ضاحكةٌ والكفُّ مانِحَةٌ
والنفسُ واسعةٌ والوجهُ مُنْبَسِطُ (1)

قدمه أصحابه لإشارة ووصية ابن تومرت إليه قبل وفاته ، فتم له الأمر وكَمُل .

---

(1) المعجب في تلخيص اخبار المغرب : صفحة : ٧١ .

أول ما أخذ من البلاد وهران ثم تلمسان ثم فاس ثم سلا ثم سبتة، ثم مراكش في أوائل سنة ٥٤٢ هـ ، بعد حصار أحد عشر شهرا.

وفي عهده غدت دولة الموحدين أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين ، لقد صارت حدودها الجنوبية بالصحراء الكبرى، ومن الغرب المحيط الأطلسي ، ومن الشرق صحراء ليبية التي تفصلها عن مصر، وفي وراء المضيق ملك الموحدون الأندلس وقواعدها الهامة.

ان اختراق دولة الموحدين من الأطلسي حتى حدود مصر مسيرة أربعة أشهر ، أما من الجنوب « من الصحراء الكبرى » حتى حدود اسبانية النصرانية مسيرة خمسين يوماً ، وتم هذا كله في عشرين سنة على يد عبد المؤمن .

ففي عهده فتح المغرب كله ، وكان آخره مدينة مكناس سنة ٥٤٣ هـ بعد حصار دام سبع سنوات ، وخلص المغرب الأوسط من غارات الوافدين عليها ، واحتل مدينة الجزائر سنة ٥٤٦ هـ ، وفتح تونس سنة ٥٥٤ هـ ، ووصلت جيوشه الى طرابلس الغرب فاتحة، واسترجع المهدية بعد أن سار من البر والبحر بأسطول ضخم لاستعادة الثغور الاسلامية في تونس من يد النصارى ، وحاول الافرنج إغاثة اخوانهم فبعثوا الأساطيل الى مياه تونس ، ووقعت بين الموحدين والنصارى معارك بحرية هائلة، انتهت بفوز المسلمين، وفتح عبد المؤمن للمهدية سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، بعد أن بقيت اثني عشر عاما بيد النصارى[١] .

---

(١) دخل عبد المؤمن المهدية يوم عاشوراء من سنة ٥٥٥ هـ ، بعد ان امن النصارى الذين بها على أنفسهم على أن يخرجوا له عن البلد ويلحقوا بصقلية .

أما الأندلس ، فقد اختلت أحوالها في بداية حكم الموحدين في المغرب ، وظهر فيها ثوار استقل كل منهم في ناحية ، وطردوا عمال المرابطين ، ومن أشهر هؤلاء الثوار :

ـ أحمد بن حمدين الذي استقل بقرطبة •

ـ الحسين الملقّب بابن حسّون قاضي مالقة الذي استنجد بالنصارى •

ـ محمد بن عبد الله الخشني الذي استقل بمرسية •

ـ أبو القاسم بن قسني الذي ثار في غرب الأندلس •

ـ محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش ، وأحمد بن هود في الثغور الشرقية •

لقد عمّت الفوضى الأندلس ، وحاول يحيى بن غانية عامل المرابطين أن ينقذ ما يمكن انقاذه من الأراضي التي كانت تحت سلطة المرابطين ولكن بعد فوات الأوان[1] •

* * *

سيَّر عبد المؤمن سنة ٥٤٠ هـ جيشاً بقيادة أبي عمران موسى بن سعيد ، فيه عشرون ألفا من المشاة ، وعشرة آلاف من الفرسان ، وبدأ فتح الاندلس •

---

(١) راجع ثورة ابن غانية مفصلة في معركة العقاب بقيادة محمد الناصر بن يعقوب المنصور الموحدي •

ورأى عبد المؤمن قبل متابعة الفتح في الأندلس أنه من الحزم والفطنة أن يضع للدولة نظماً موطدة الدعائم ، فأطلق حرية العلوم والمعارف ، وسار في كل ذلك مع نهج الدين الحنيف ، وبنى عددا من المساجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم والآداب ، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً ، مع التمرين على فنون الحرب ، ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع الى العلم والدرس الى اضعاف الهمم ، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحّدين .

كما أنشأ عبد المؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة ، وموظفي الحكومة ، وقادة الجيش ، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره ، ويمتحنهم فيما درسوا ، ويوجّه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد ، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب .

وفي أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية ، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام ، والمبارزة وركوب الخيل ، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدّها ووضع فيها سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر ، وقيادة السفن ، والوثب على سفن العدو ، وكان يقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه[1] .

لقد استطاع عبد المؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشىء نظاما

---

(١) تاريخ الاندلس في عهد المرابطين الموحدين ، يوسف اشباخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٠ .

جديدا للدولة ، إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته • وكان أشد ما يعنى به عبد المؤمن ــ وهو من أعظم قادة العصور الوسطى ــ تنظيم شؤون الحرب والجهاد ، التي بثّ فيها بجهوده ومتابعته ، نهضةَ إحياء شاملة • وإليك وصفاً لنظام سير الموحدين ، وتقسيمات الجيش ، كما كان عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الصقليين[1] •

« كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس، وكانت علامة المسير ثلاث قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً ، مدهون بلون الموحدين الأخضر ، ومحلى بالذهب ، وقد صُنع من خشب رتّان ، فكان يُسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضُرِب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ريح فيه ، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص ، وهو يحمل مطوياً أثناء السير ، ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع ، وقد كان مكوّنا من اللونين الأبيض والأزرق ، وعليه هلال مذهب ، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب ، هذا غير مايتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة ، وتُخصَّص لغذاء الجند ، وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف ــ فضلاً عن الفرسان ــ من سبعين ألفاً من المشاة ، وكان ينقسم الى أربعة جيوش ، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء ، أو ضيق في المكان ، وإذا كان معظم

(١) راجع الحلل الموشية ، ص : ١١٥/٢٢٦ بتصرف •

الجند مثقلا بالسلاح ، فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى ، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط ، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس الى وقت الظهر ، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير في اليوم التالي بقوى مجددة ، وترتب على هذا التمهل في مسير الجيش ، أن اقتضى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط .

وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة ، وأدوا معه الصلاة ، ثم ينصرف بعد ذلك كل الى مكانه ، والى قيادة الجند التابعين له ، وكان يتقدمه في السير مائة شيخ وقائد ، يمتطون جياداً مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة ، ويرتدون ثيابا فخمة ، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدون من قرطبة ، تبركا وتيمنا ، وقد وضع في — صندوق — بديع الصنع ، محلى بصفائح الذهب : مرصع بأروع اللآلىء والاحجار الكريمة ، حتى إنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين، وبني عباد ملوك اشبيلية ، وبني هود ملوك سرقسطة ، والمرابطين ، قد اجتمعت فيها جميعاً وتكدست . وهذا « الصندوق » يحمل في هودج ثمين ، وعلى جوانبه الأربعة أربعة أعلام ، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، والى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والي تلمسان ، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف ، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون[1]

(١) كان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولدا .

الذين يرافقون الجيش ، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها ، وعدد من قارعي الطبـول على خيول عاليـة ، والنافخون في الأبواق والقرون[1] ، وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية ، ثم الولاة والقضاء والوزراء والكتاب ، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم ، فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المعسكر ، أفرد لكل قسم مكانه المعين ، ولا يسمح لانسان أن يترك المعسكر دون اذن القائد المختص ، ثم توزع الاقوات ، التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة ، على الجند بأنصبة متساوية ، فلا يُقَتَّر على أحد منهم ».

يستنتج من هذه النظم الصارمة ، ومن المثابرة على التمارين الحربية ، ومن دراسة حياة الموحدين :

١ ــ ان عبد المؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال .

٢ ــ كان يتولى القيادة بنفسه في كل الامور الحاسمةالهامة.

٣ ــ وكان يتبع نظاما جديدا في منتهى البساطة ، ولكنه جم الفوائـد .

٤ ــ وأن قيمة الجيش ليست في عدده ، إنما هي قبل كـل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وايمانه ، وكان عبد المؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن تؤلف من جند من المشـاة ، حسنة التدريب ، حسنة التسليح ، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن ، مع وجود جيش ضخم من الفرسان لا يستغنى عنه في المعارك .

---

(١) القرن هنا : آلة موسيقية تعتمد على النفخ - تشبه تماما القرن المعروف على راس البقر او غيره .

ومن أعمال عبد المؤمن : مسح جميع أراضي مملكته ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها وثروتها وغلاّتها . وكان يرمي من ذلك الى تقرير الضرائب من ناحية، وأن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى ، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن ، والمناطق الصحراوية والغنية بالخيل تقدم الفرسان ودواب الحمل والجمال ، وعلى الولايات الأخرى ــ في المدن الداخلية مثلا ــ تقديم الجند المشاة والسلاح ، كل بنسبة سكانها .

وكان عبد المؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة ، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له . وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تعطي القسيّ والنّشّاب والخوذات والدروع والسهام .. وآلات الرمي والمنجنيقات التي تستخدم في الحصار.

وبعد أن حرر عبد المؤمن المهدية وتونس من يد الافرنج النورمانديين سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، وجاءته الوفود الأندلسية تستنصره للجهاد ، قرّر العبور الى الأندلس بنفسه ، حيث كان ولده أبو يعقوب يوسف يتابع الحروب هناك[١] .

---

(١) ومما يذكر أنه في هذه الاونة ، وفي وهران ، كاد عبد المؤمن يذهب ضحية مؤامرة دبّرها بعض جنوده الذين سئموا طول القتال ، وتاقت انفسهم الى رؤية الوطن، ورأوا أملهم ينهار بسبب الغزوة الجديدة ، واعتقدوا أن خير وسيلة لتحقيق أمنيتهم هو موت عاهلهم الذي لايني عن السير من فتح الى فتح : فاعتزموا قتله ليلا وهو نائم في خيمته ، فوقف على هذه المؤامرة شيخ من أشياخ القبائل ، فحذر عبد المؤمن في الوقت المناسب ونام في خيمته وفي سريره ، وقتله المتآمرون طعنا بالخناجر ظنا منهم انه عبد المؤمن . ولكن عبد المؤمن كان قد التجأ الى خيمة الشيخ الذي افتداه بنفسه ، ونجا بذلك من الهلاك .

الموحدون في الأندلس

✶ انقذت اسبانية مرتين : الاولى بانسحاب يوسف بن تاشفين بعد الزلاقة ونصرها الرائع وعدم دخوله طليطلة ، والثانية بموت عبد المؤمن .

افتتح الموحدون غرناطة سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م ، وجابهوا الاسبان وحليفهم ابن سعد بن مردنيش[1] صاحب مُرْسيَة ، ونظراً لانشغال عبد المؤمن في شرق مملكته بحرب النورمانديين ، تمكن سانشو الثالث ملك قشتالة من أن يحــرز بعض الانتصارات ، وتمكن ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال من أن ينتزع من الموحدين بعض الغنائم ، فأخذ « حصن القصر » وقتل جميع حاميته سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م .

وجاءت الوفود الأندلسية تستنصر عبد المؤمن للجهاد ، فقرر العبور بنفسه ، وتم ذلك عام ٥٥٦ هـ ، فرعى أحوال الأندلس ، ووفر لها حامية قوية من جنده ومن الاندلسيين ، وجعل غرناطة مركزا دفاعيــا قويا ، ونقــل العاصمة من اشبيلية الى قرطبــة سنة ٥٥٧ هـ .

---

(١) وهو محمد بن احمد بن سعد بن مردنيش البلنسي صاحب شرق الاندلس (مرسية وبلنسية) ، راجع معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي لزامباور ، ص : ٩٢ ، وحكم ابن سعد من ٥٤٢ وحتى ٥٦٦ هـ في الاندلس ثم فر الى جزر البليــار .

وفي أثناء مقامه افتتح المسلمون من ألفونسو هنريكيز بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر ، وعين محمد بن علي بن الحاج واليا لهذه الولاية الجديدة[1] .

عاد عبد المؤمن الى مراكش ، فاستأنف ابن سعد أمير بلنسية الحرب ضد الموحدين ، فحاول استرداد غرناطة ، وجمع حوله كل الأندلسيين الذين يعارضون حكم الموحدين ، كما حالف النصارى أمراء قشتالة وأراجون ، لقاء جزية كبيرة يؤديها لهم .

والتقى ابن سعد مع الموحّدين على مقربة من غرناطة ، فتمكن الموحدون — وبجدارة — من احراز نصر باهر ، أيد شهرتهم كفاتحين ، وذلك في موقعة سميت « مرج الرقاد » .

وجمع ابن سعد جندا من جديد ، ولكنه هزم ثانية أمام الموحدين ، في ٢٨ رجب ٥٥٧ هـ ، في معركة عرفت باسم « موقعة السبيكة » .

وفي هذه الاثناء اعتزم عبد المؤمن أن يعبر الى الاندلس ثانية ، فقام بأهبات عسكرية ضخمة ، ودعا الجند الى الجهاد في اسبانية ، فاجتمع لديه من سائر مملكته الشاسعة ، زهاء ثلاثمائة ألف فارس ، ومائة ألف راجل ، وحشد أربعمائة سفينة كبيرة أعدت في ثغور المغرب لنقل الجيش ، ولاح في الافق عندئذ أن إسبانية النصرانية التي شطرت يومئذ الى ممالك خمس ، قد قدر

---

(١) « غزوات الموحدين في الاندلس بقيادة عبد المؤمن » ج : ٢ ، ص : ٥٩ وما بعدها من « تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين » ليوسف اشباخ .

لها الهلاك ، وأنها لقمة سائغة هنية للفاتح الأندلسي • ولكن عبد المؤمن أحس بنهايته ، فخرج الى مدينة سلا ، حيث أصابه مرض شديد مفاجىء ، فتوفي رحمه الله في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ ، بعد ولاية دامت ثلاثا وثلاثين سنة وأشهرا ، في الوقت الذي كانت السفن تنقل الجند الى الاندلس • فأنقذت اسبانية النصرانية للمرة الثانية ، الأولى بانسحاب يوسف بن تاشفين بعد الزلاقة ونصرها الرائع وعدم دخوله طليطلة ، والثانية بموت عبد المؤمن •

توفي عبد المؤمن[1] وقد تجاوز السبعين من عمره[2] ، وعهد الى ولده أبي يعقوب يوسف ، قيل عنه ــ تغمَّده الله برحمته ورضوانه ــ : إنه ذو فهم ثاقب ، فصيح ، واسع المعرفة في علوم كثيرة ، شجاع ذو عزيمة ، حاضر البديهة ، وكان يسمو على جنوده في تحمل المشاق والشدائد ، وكانت شعوب المغرب المتقشِّفة تعجب بتقشُّفه في مأكله ومشربه •

ووصف عند موته بما يلي : كان شيخا نقي البياض ، معتدل

---

(١) المؤمن من اسماء الله الحسنى ، والمؤمن : أصل الايمان التصديق والثقة ، وسمى الله نفسه مؤمنا لانه شهد بوحدانيته ، فقال تعالى : « شهد الله أنه لا اله الا هو » آل عمران / ١٨ • كما شهدنا نحن ، قال الزجاج : المؤمن : الذي وحد نفسه • (راجع تفسير اسماء الله الحسنى ، ص : ٣١ تحقيق الاستاذ احمد الدقاق) •

(٢) ولد في آخر سنة ٤٨٧ هـ ــ وكانت وفاته في جمادى الاخرة سنة ٥٥٨ هـ •

القامة ، عظيم الهامة ، أشهل العينين[١] ، كثّ اللحية[٢] ، شثن الكفين[٣] ، طويل القعدة ، واضح بياض الاسنان ، بخده الأيمن خـــال .

وقال عنه الحافظ شمس الدين الذهبي : « كان ملكا عادلاً رحيما ، عظيم الهيبة ، عالي الهمة ، كثير المحاسن ، متين الديانــة ، قليل المثل ، كان يقرأ كل يوم سبعا ، ويجتنب لبس الحرير ، ويصوم الاثنين والخميس ، ويهتم بالجهاد والنظر في الأمور كأنما خُلِق للمُلْك » .

ومن محاسنه أنه كتب الى عماله في الأندلس بالعناية بالبلاد ، وبالاحسان الى الرعية ، وأن يكون العدل أساس أحكامهم ، وأن ترفع إليه أحكام الاعدام ، مدونا فيها الشروح وشهادات الشهود ، مع حجج المظلومين ، أما الجرائم الأخرى فلا بد من التدقيق فيها ، وكذلك في سائر المعاملات أوصى بتقوى الله في السر والعلن ، والجري على سنة رسول الله ﷺ .

---

(١) الشهلة : في العين ان يشوب سوادها زرقة ، وعين شهلاء ، ورجل شهل العين بين الشهل . « مختار الصحاح ، صفحة : ٢٩٩ » .

(٢) كث الشيء من باب سلم أي « كثف » ، ولحية كثة وكثاء ، ورجل كث اللحية كثيفها « مختار الصحاح ، صفحة : ٤٨٤ » .

(٣) الشثن من الرجال كالشثل وهو الغليظ ، وقد شثنت كفه وقدمه شثنا وشثونة وهي شثنة ، أي أنهما تميلان الى الغلظ والقصر ، وقيل هو الذي في أنامله غلظ بلا قصر ، ويحمد ذلك في الرجال لانه أشد لقبضتهم ، ويذم في النساء . ومن صفاته ﷺ : شثن الكفين والقدمين .

(لشرح أوسع راجع لسان العرب ، ج : ١٣ ، ص : ٢٣٢) .

دور العظمة في دولة الموحدين

✶ وتتمثل بيوسف بن عبد المؤمن الذي حكم اثنتين وعشرين سنة ، كلها جهاد وفروسية وشجاعة وجود ، مع وافر الهيبة والجلال •

لولا القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر وغيرته وفطنته ومساندته للأصلح ، لتعذر على أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أن يفوز بحكم دولة الموحدين • فقد اعتزم أخواه محمد وعبد الله ألا يخضعا لولي العهد يوسف ، ولاح في الأفق شبح حرب أهلية ، ولكن القاضي أبا الحجاج عمل على اخفاء موت عبد المؤمن ، حتى قدم أبو يعقوب يوسف من الأندلس الى مراكش حيث بويع[1] ، وخلال عامين استتب له الأمر تماما ، فقضى على ثورتي « مرزدغ الصنهاجي » ، وثورة « سبع بن منغفاد » من قبيلة غمارة ، ولم يظهر بعد هذين ثائر بالمغرب أيام أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن • ولم يخرج على ذلك الاجماع التام أخواه محمد وعبد الله ، اللذان خلبهما رفقه وتسامحه وفطنته وبراعته ، علماً أنه لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره •

---

(١) وذلك في شعبان ٥٥٨ هـ • راجع ج : ٢ ، ص : من تاريخ الاندلس لاشباخ •

لقد قبض يوسف بن عبد المؤمن بحزم على أعنة الحكم ، وانتقى بحسن فهمه ووعيه وفراسته ، أكفاء الرجال لمناصب الدولة، مشترطا فيهم الثقافة العامة ، والالمام بمعظم العلوم الاسلامية .

ولما استتب الأمر ليوسف بن عبد المؤمن انتهى دور التأسيس ليبدأ دور العظمة في دولة الموحدين، فانصرف الى الجهاد بالاندلس.

وفي الاندلس حشد أمير بلنسية ابن سعد زعماء الاندلس المعادين للموحدين مع ثلاثة عشر ألفا من القشتاليين والأراجونيين، وسار عام ١١٦٥ م باتجاه مرسية ، حيث التقى بجيش الموحدين بقيادة أبي سعيد عبد الرحمن أخي أبي يعقوب يوسف قرب مرسية، واحرز الموحدون نصرا كاملا[١] .

وأمام ازدياد سلطة الموحدين في جنوب اسبانية ، وضعف ابن سعد أمير بلنسية ، وتعرض الممالك النصرانية للانهيار شيئا فشيئا ، سار ابن سعد عام ١١٦٧ م الى طليطلة ليوثق تحالفه
فشيئا ، سار ابن سعد عام ١١٦٧م الى طليطلة ليوثق تحالفه بالملكين ألفونسو الثالث ملك قشتالة ، وألفونسو الثاني ملك أراجون .

عبر أبو يعقوب يوسف مضيق جبل طارق الى اسبانية في صفر سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م ، ووصل اشبيلية عاصمة الاندلس آنذاك ، ثم سار الى بلنسية وافتتحها ، فسار ابن سعد الى جزيرة ميورقة بعد سقوط عاصمته ، وانتزعها من يد أبناء القائد المرابطي ابن غانية ، ولكنه توفي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م ، فتنازل أبناؤه

---

(١) انضم الى الموحدين بعدها والي جيان أبو جعفر احمد بن عبد الرحمن الوقشي، ثم عاد الى التحالف مع ابن سعد .

عن أملاكهم كلها للموحدين[1] ، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف الى حرب النصارى • ومكث في الاندلس أربعة أعوام ، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ، حقق فيها نجاحات رائعة ، ثم عاد الى مراكش عام ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م بعد أن بنى جامع اشبيلية ، وأدخل الماء اليها ، وأقام جسرا على واديها •

واستمرت الحرب ضد النصارى الاسبان على شدتها بين الفريقين ، برية وبحرية ، ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في حروبه ضد النصارى ، عبر الى الأندلس في صفر ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، وصمم على معاقبة البرتغاليين أكثر الأعداء خطرا • وكانت خطته تقضي أولا بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر ، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة الى قلب مملكتي قشتالة وليون ، بينما تشغل قوات اسلامية أخرى تزحف من الجنوب قوات النصارى القشتالية والليونية ، وساعده في تحقيق خطته قواته العظيمة ، وقوى مسلمي الأندلس •

سار أبو يعقوب يوسف على رأس الجيش الرئيسي متجها الى بطليوس ، معتزما حصار أشبونة • وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح ، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى ، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه ، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملا

---

(١) وهي : مرسية ، مربيطر ، شاطبة ، لورقة ••• والاراضي الواقعة فيما بين مصب نهر ايبرو ومدينة قرطاجنة وعلى الاراضي الواقعة على مقربة من الجزر الشرقية « جزر البليار » •

أن تسقط في يده قبل مقدم الاسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر .

وبعد أحد عشر يوما من حصار شنترين بدأ بضربها بآلات الحصار ، ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، حتى استولى أبو يعقوب عليها ، خلا قلعتها ، وذلك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبراً القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجربين ، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين الى شماليها وغربيها ، حيث يتعرض الجيش بذلك الى خطر التطويق من جانب الأعداء ، ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها ، فكان الخطر .

ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده أبا اسحاق والي اشبيلية أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة ، وذلك لكي يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة ، فهل وقع سوء فهم ، أم كانت ثمة فتنة؟

إن أبا اسحاق سار في الليل بدلا من أن يسير في الصباح ، وبدلا من أن يسير في اتجاه اشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه اشبيلية ، وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش ، حتى انتشر الاضطراب والروع في انحاء المعسكر الاسلامي ، وتفاقم الامر ، حيث زحف سانشو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل ، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب يوسف قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة

مدينة الكوبازة ، بيد أنه حينما تحول بمعسكره الى المواقع الجديدة ، ألفى نفسه أمام الجيش البرتغالي وجها لوجه .

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب ، خلافا لنصح قواده ، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ، ومسير القوات الأندلسية الى ماوراء نهر التاجة ، وهو ما بدا كأنه أمر غير طبيعي ، وأخيرا ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه ، كل هذه الامور بثت في معسكر الموحدين نوعا من الرعب العام ، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها .

وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل ، وانضم الى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو ، وبادر النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم ، وعاونت حامية قلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة ، ومهاجمة المسلمين[1] .

ولما كان قسم كبير من قوى الموحدين قد عبر نهر التاجة ، فانه لم يبق لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص ، وقليل من القوات الأخرى ، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقا بباقي الصفوف لسرعتها . ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطا ، أنه وقع ضحية خيانة ، أو ضحية سوء تفاهم ، والامر الاول هو الارجح ، فقد أسلم الى الأعداء ، ولكنه لم يرد أن يركن الى الفرار

(١) للتوسع : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ج : ٢ ، ص : ٧٣ وما بعدها .

شأن الجبان ، ولم ترض ليوسف شهامته الفرار ، فنشبت معركة ، وهجم النصارى على معسكر الموحدين وهم يصيحون : إليهم .. إليهم .. إليه ، أين هو[1] ؟ ثم نفذوا الى خيام الحرس ، وقتلوا رجال أبي يعقوب جميعا . أما أبو يعقوب فقد وثب الى فرسه ، وأسقط منه ثلاث مرات وهو يقاتل بسيفه ستة من الفرسان النصارى ، وأخيرا طعنه أحدهم بسيفه طعنة نافذة فسقط على الارض مضرجا بدمائه[2] .

وبلغ أحد الفارين أبا اسحاق المنسحب بجيشه نبأ الوقعة الأليمة ، وما أحاق بالأمير من خطر ، فارتد من فوره لانقاذ الأمير ان كان ثمة وقت ، وما كاد يعبر نهر التاجة بجنوده حتى نشبت معركة سالت فيها دماء الفريقين غزيرة ، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين[3] .

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في ١٢ ربيع الاول ٥٨٠ هـ / ٢٤ أيار (يوليو) سنة ١١٨٤ م ، بعد أن حكم مملكة الموحدين بجدارة وكفاية ، مدى اثنين وعشرين عاما ، وكانت أكبر أخطائه رغبته في أن يتولى جميع الامور بنفسه ، وعدم اصغائه لنصح الناصحين ، أو يستمع الى أحد في العدول عن أمر تقرر ، وكان الى جانب ذلك عظيما في شجاعته وفروسيته ، فياض الجود

---

(١) في روض القرطاس : ان النصارى حينما هاجموا معسكر الموحدين ، كانوا يصيحون : ري .. ري ، أي اقصدوا السلطان ، Rey في الاسبانية « ملك » .

(٢) قيل : انه نقل الى الجزيرة الخضراء ، حيث نقل جثمانه الى تينملل .

(٣) راجع : روض القرطاس : ١٤٠/١٤١ ، ابن خلدون « العبر » ٢٤١/٦ ، ابن الاثير « الكامل في التاريخ » : ١٩٠/١١ .

في كل مناسبة ، وافر الهيبة والجلال •

* * *

وصف أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بما يلي :

كان أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، في صوته جهارة ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الالفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، واحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والاسلام ، وأحسن الناس ألفاظا للقرآن الكريم ، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية •

وكان بعيد الهمة ، سخيا جوادا ، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الاموال ، هذا مع ايثار للعلم شديد ، وتعطش اليه مفرط ، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ، وأغلب الظن أنه البخاري ، حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم ، هذا مع ذكر جميل من الفقه ، وكان له مشاركة في علم الأدب ، واتساع في حفظ اللغة ، وتبحر في علم النحو حسبما تقدم • وطمع به شرف نفسه وعلو همته الى تعلم الفلسفة والطب ••• وجمع مكتبة ، كان مافيها قريباً مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي ، ثاني الخلفاء بالاندلس (٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ) حيث احتوت مكتبته على أربعمائة ألف مجلد •

وصحبه من العلماء أبو بكر بن الطفيل ــ صاحب رسالة حي بن يقظان ــ وأبو الوليد بن رشد •

وكان من عادة أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد

المؤمن الموحدي أنه قبل حروبه في الاندلس، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تملى على الموحدين ليدرسوها ، واتخذ ذلك سنة الى آخر أيام الموحدين ، فجمع العلماء ذلك وجاؤوا بها اليه ، فكان يمليه على الناس بنفسه ، فكان كل واحد من الموحـدين والسادة يجيء بلوح ويكتب فيه الاملاء ، فجاء هلال بن محمد بن أحمد بن سعديوماو هو من أمراء شرقي الأندلس»،ولا لوح معه،فأخرج القوم ألواحهم، فقال له وزير أمير المؤمنين، أين لوحك يا أبا القمر؟ فخجل وافتتح يعتذر ، فأخرج له أمير المؤمنين من تحت برنسه لوحا وناوله إياه ، وقال : هذا لوحه . فلما كان من الغـد جاء ومعـه لوح غير الذي دفعه له أمير المؤمنين ، فلما نظر اليه قال : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبأته وأوصيت اذا مت أن يجعل بين جلدي وكفني ، وأتبع ذلك بكاء حتى أبكى بعض مـن كان في المجلس ، فقال أمير المؤمنين : هذا المحب الصادق ، وأمر له بخيل وأموال ، وخلع ، ولبنيه بمثل ذلك .

فمن روعة يوسف بن عبد المؤمن ، فهمه السليم الصحيح للسنة الشريفة ، فالأحاديث لا تروى للتبرك فقط ، بل انها للتطبيق العملي ، انها تلاوة درس وتفهم ، ثم تطبيق في أرض الميدان .

ونذكر هنا أخيرا .. قول عبـد الواحـد بن علي التميمي المراكشي في كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغـرب » حيث قال : « ولم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعيادا وأعراسا ومواسم ، كثرة خصب وانتشار أمن ودرور أرزاق ، واتساع معايش ، لم ير أهل المغرب أياما قط مثلهـا ، واستمر هـذا صدرا من امارة أبي يوسف » .

الأرك
وقائدها
المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي

✱ نفح الطيب : « غـزوة الأرك التي تضاهي وقعة الزلاقة أو تزيد » ، وفي وفيات الأعيان : « لم يسمع في بلاد الاندلس بكسرة مثلها » .

خلف أبا يعقوب في الحكم ولـده أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي ، القيسي الكومي[1] . كان صافي السمرة جدا ، الى الطول ماهو ، جميل الوجـه أفوه أعين[2] شديد الكحل ، ضخم الأعضاء جهوري الصوت ، جزل الالفاظ ، من أصدق الناس لهجة ، وأحسنهم حديثا ، وأكثـرهم اصابة بالظن ، مجربا للأمور ، ولي وزارة أبيه ، فبحث عن الاحوال بحثا شافيا ، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الامور ، ولما مات أبوه ، اجتمع رأي أشـياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية،

---

(١) اخباره في الحلل الموشية : ١٢١ ، وروض القرطاس : ١٦٠ ، وأعمال الاعلام: ٢٦٩ ، والبيان المغرب : ٣/١٤٠ ـ ٢١١ ، والاستقصا : ٢/١٥٨ ، وتاريخ الدولتين : ١٠ ، والمعجب : ٣٣٦ ، وجذوة الاقتباس : ٣٤٨ ، ونفح الطيب ، ج : ١ ، ص ٤١٩، اخذ عنها كلها ابن خلكان ترجمة المنصور بفضل الله في وفيات الاعيان ، ج : ٧ ، ص : ٣ وما بعدها .

(٢) رجل أعين : واسع العين ، بين العين .

ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ، ولقبوه بالمنصور بفضل الله ، فقام بالامر أحسن قيام ، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم ، ورفع راية الجهاد ، ونصب ميزان العدل ، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ، ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين ، كما أقامها في سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال في أيامــه وعظمت الفتوحات .

ولما مات أبوه كان معه في الأندلس ، فباشر تدبير المملكة من هناك ، وأول مارتب قواعد بلاد الأندلس ، فأصلح شأنها ، وقرر المقاتلين في مراكزها ، ومهد مصالحها في مدة شهرين ، وأمر وهو في الأندلس بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات ، وأرسل بذلك الى سائر بلاد الاسلام التي في مملكته ، فأجاب قوم وامتنع آخرون[1] .

كان أبو يوسف المنصور ممن شهد موقعة شنترين ، فتولى قيادة الجيش مذ جرح أبوه ، وأخفى موته حتى عاد الى المغرب ، وتمت بيعته في مراكش رسميا في جمادى الأولى سنة ٥٨٠ هـ / أيلول « سبتمبر » سنة ١١٨٤ م ، وعمل على اكتساب محبــة الشعب باخراج مقادير كبيرة من أموال الدولة وتوزيعهــا على الفقراء ، وأطلق المسجونين في كل الولايات ، الذين اعتقلوا لذنوب ثانوية بسيطة ، وأسقط المكوس التي لم يتم أداؤها ، وزاد أجور

(١) سنعود الى مزيد من سيرته بعد ذكر اخبار معركة الارك .

الجند النظامي والقضاة والفقهاء . وحَصَّن الحدود في جميع الأماكن التي يخشى عليها ، وشحن القلاع بطوائف ممتازة من الجند ، وطاف بجميع أنحاء المغرب ليتحقق بنفسه من تنفيذ اوامره ، كما بنى المستشفيات والمدارس ، وسهل المواصلات ، فانشأ في الطرق الرئيسية ، وطرقْ القوافل أبراجا وأحواضا لخزن الماء وآبار للاستسقاء ، وفنادق لنزول المسافرين . كما كان صديقا ونصيرا للعلماء ، أنشأ لهم المعاهد ، وجعلهم حسب درجة علمهم وعملهم رتبا ، وأجرى عليهم الأرزاق كل وفق رتبته ، وكان يؤثر الأطباء والمشرفين على المستشفيات التي آوت العجزة والعمي .

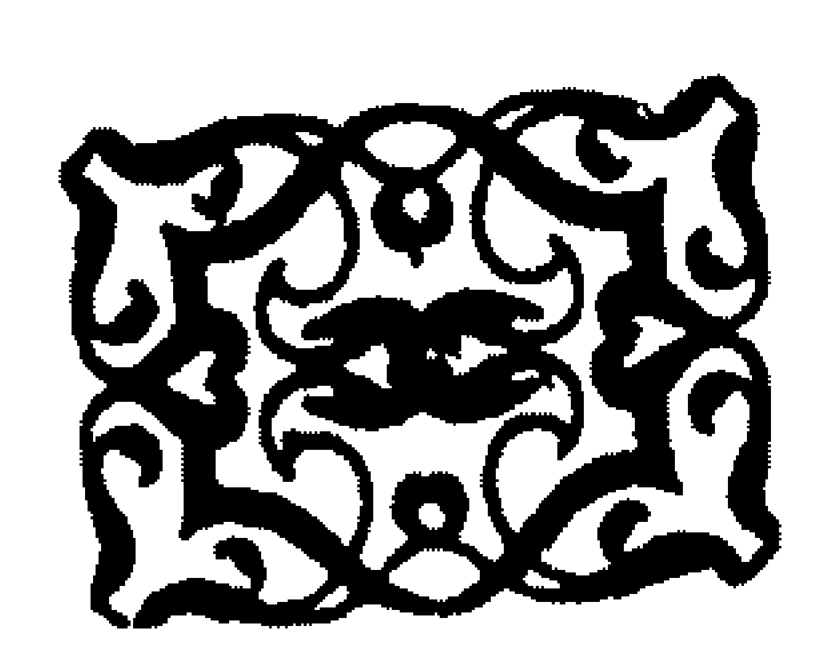
* * *

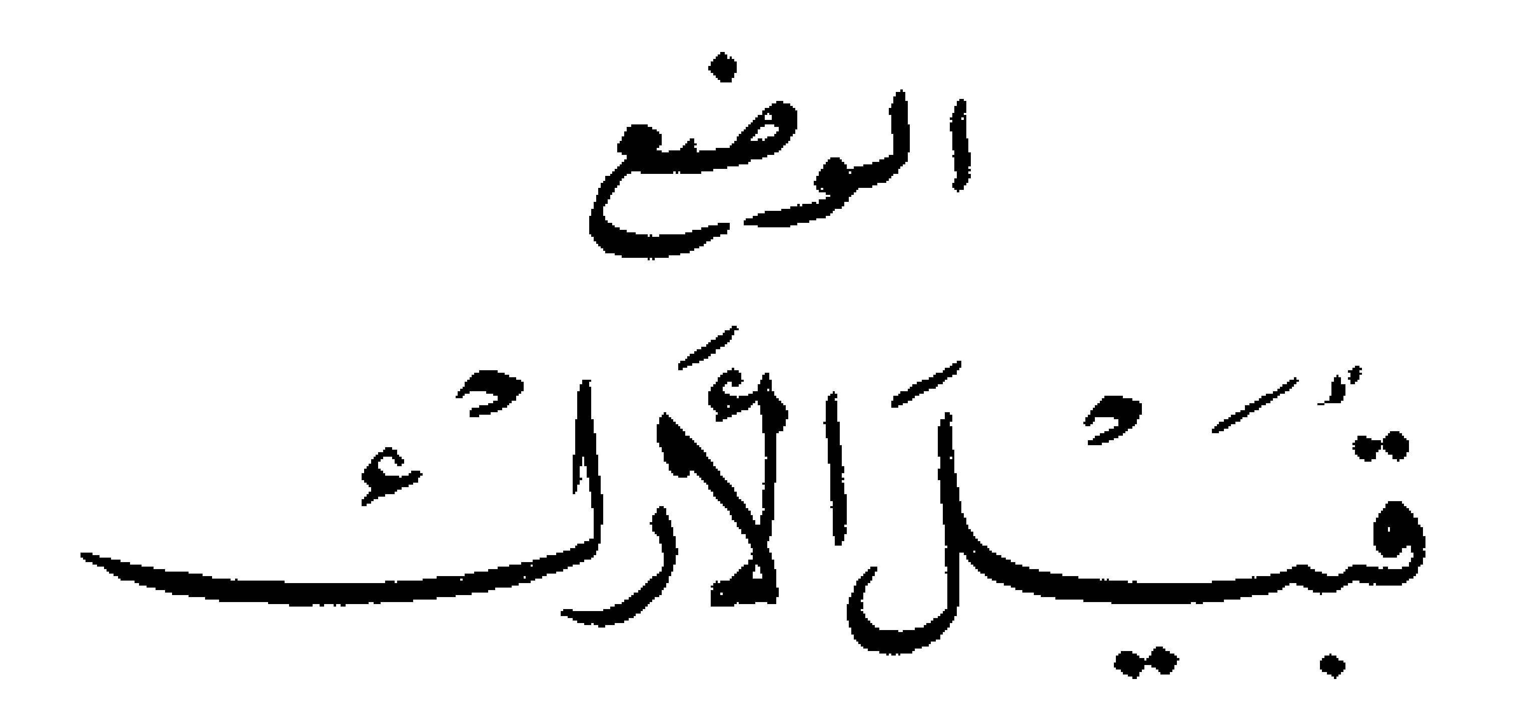
بعد « شنترين » تحركت بقية المرابطين الذين وجدوا في جزر البليار ملاذا لهم ، بقيادة علي بن اسحاق بن محمد بن علي بن غانية الملثم ، فاستولى على الأسطول الأندلسي الراسي في ميورقة، وشحنه بالمرابطين وأهل جزر البليار ، وأبحر الى بجاية « من ثغور الجزائر » ، فاستولى عليها دون مقاومة تذكر ، وأخرج منها واليها القاضي سليمان بن عبد الله ، وشجع ذلك بعض الزعماء الناقمين ، بل إن أخوين من اخوته هما أبو يحيى وعمر وعمه أبا الربيع كانوا فيما يبدو على تفاهم مع الثوار . واستطاع أبو يوسف المنصور عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م أن يقضي على الثورات ، وأن يروع جميع الثائرين بما فيهم المرابطين الذين

استولوا على فاس وطرابلس ، فهزمهم أبو يوسف المنصور في فاس في معركة كبيرة واسترد المدينة .

وبعد السكينة في المغرب عبر أبو يوسف المنصور الى المغرب في رجب ٥٨٥ هـ لاخماد ثورة قامت في تونس ، فانتهز البرتغاليون فرصة غيبته ليقوموا بفتوح في جنوبي البرتغال ، وجاء الى البرتغال في هذه الآونة صليبيون ألمان من الراين ، وآخرون من انكلترا ، اشتركوا مع سانشو ملك البرتغال في حروب المسلمين ، وأنزلوا جيشا الى البر وحاصروا مدينة شِلْب على حين غرة ، وقطعوا عنها موارد الماء ، فاضطرت الى التسليم ، وعقدت مع سانشو عهدا ، بيد أنها لم تنج من مصير مروع ، لقد بقي ثلاثة عشر ألفا فقط من سكانها البالغين ستين ألفا ، فالباقي قتلوا أو سبوا بيد الألمان والانكليز ، واستقر كثير من الانكليز في شلب ، واختاروا لها قِسّاً منهم .

استعاد الموحّدون بقيادة محمد والي قرطبة شلب بعد حصار صارم ، وفتحوا أيضاً باجة ويابرة في شوال ٥٨٧ هـ / تشرين الثاني « نوفمبر » ١١٩١ م .





الوضع قبل الأرك

✶ بسم الله الرحمن الرحيم :
« ارجع اليهم فلناتينّهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » .
صدق الله العظيم
« النمل : ٣٧ »

هدأت الحرب في الأندلس بضعة أعوام لسببين :

الأول : انشغال الموحدين بثورات قامت في أفريقية ، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش ، فقد كان يرغب تولي الحرب بنفسه .

والثاني : الخلاف الذي وقع بين الملوك الاسبان في تلك الاونة ، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير الى غزوه ، ولكنه لما عيّن « مارتن دي بسيرجا » مطراناً لطليطلة عقب وفاة المطران « جونزالو » ، أخذ هذا المطران يعمل بروح صليبية لاعداد حملة كبيرة في الأندلس ضد المسلمين، وبالفعل .. دمّر في حملته التي أعدها كل شيء بالنار والسيف ،

فانتسفت الغلات والكروم ، وقطعت أشجار الزيتون ، وخربت الضياع والقرى ، وسيقت الماشية ، وسبى المسلمون العزل رجالا ونساء ، وقتل قسم كبير منهم ، وزحفت قوى من فرسان النصارى الى أقصى جنوب الأندلس ، وهم يتابعون العيث والتخريب[1] .

ولم يقنع ألفونسو الثامن ملك قشتالة بهذه الغزوة التي حمل منها المطران مارتن الى طليطلة غنائم عظيمة[2] ، فكتب الى سلطان الموحدين خطاباً يشابه كتاب ألفونسو السادس الى يوسف بن تاشفين يدعوه الى القتال . وهذا نص الخطاب كما ورد في (وفيات الأعيان)[3] :

« باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد .. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب[4] ، أنك أمير الملة الحنيفية ، كما أني أمير الملة النصرانية ، وقد علمت الآن ماعليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ،

---

(١) ج : ٢ ، ص : ٨١ « تاريخ الاندلس لاشباخ » .

(٢) جاء في « وفيات الاعيان » أن صلحا اتفق عليه بين المسلمين والنصارى مدته خمس سنين ، فلما قاربت الهدنة على الانتهاء (ولم يبق منها سوى القليل) خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف الى بلاد المسلمين فنهبوا وسبوا وعاثوا عثيا فظيعا ، فانتهى الخبر الى الامير أبي يوسف المنصور فتجهز لقصدهم ... (الجزء : ٧ ، صفحة : ٤) .

(٣) يلاحظ أن صيغة الخطاب من انشاء حليف مسلم له ، وهو الوزير المعروف باسم « ابن الفخار » .

(٣) عقل لازب : عقل ثابت « مختار الصحاح ، صفحة : ٥١٢ » .

وإخلادهم الى الراحة ، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار ، واسبي الذراري ، وأمثل بالرجال ، ولا عذر لك في التخلّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة ، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم ، فالآن خفف الله عنكم وعلم انّ فيكم ضعفاً ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا ، لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا ، وقد حكي لي عنك أنك اخذت في الاحتفال ، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاما بعد عام ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا أدري أكان الجبن ابطأ بك أم التكذيب بما وعد ربك ؟ ثم قيل لي إنك لا تجد الى جواز البحر سبيلاً لعلةٍ لا يسوغ لك التقحم معها ، وها أنا أقول لك مافيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك ، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان ، وترسل إلي جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات ، وأجوز بجملتي إليك ، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك ، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت اليك ، وهدية عظيمة مثلت بين يديك ، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك ، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين ، والله تعالى يوفق للسعادة ، ويسهل الإرادة ، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء الله تعالى »[1] .

فلما وصل كتابه الى الأمير أبي يوسف المنصور مزّقه ، وكتب على ظهر قطعة منه : « ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنود لا قبل

---

(١) وفيات الاعيان ، جـ : ٧ ، ص : ٦ .

لهم بها ، ولنخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون[1] » الجواب ما ترى لا ما تسمع :

ولا كُتُبَ إلا المشرفية عنده ولا رُسُلٌ إلاّ الخميس العرمرم[2]

لقد اشتد حنق أبي يوسف المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته ، وأخذته غيرة الاسلام ، فبادر بالتأهبّ للحرب في الأندلس ، وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم، وضج الناس وصاحوا بطلب الانتقام ، واجمعوا على المطالبة بالاسراع في إعلان الجهاد . وأمر باخراج أخراق القبة الحمراء ، وسيفه الكبير إيذانا بالدعوة العامة الى الجهاد ، وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير الى سبتة ، والى غيرها من أمكنة العبور الى الأندلس .

ودوّت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب ، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي ، حتى برقة شرقا على حدود مصر ، ضد النصارى الذين غدوا خطرا على الاسلام . في الوقت نفسه الذي سارت فيه سائر جند الغرب النصراني الى محاربة صلاح الدين الأيوبي لاسترداد بيت المقدس في المشرق .

هرع الرجال والشباب والشيوخ وسكان الهضاب والصحاري والشواطىء في جميع أنحاء المغرب الى الانضمام الى

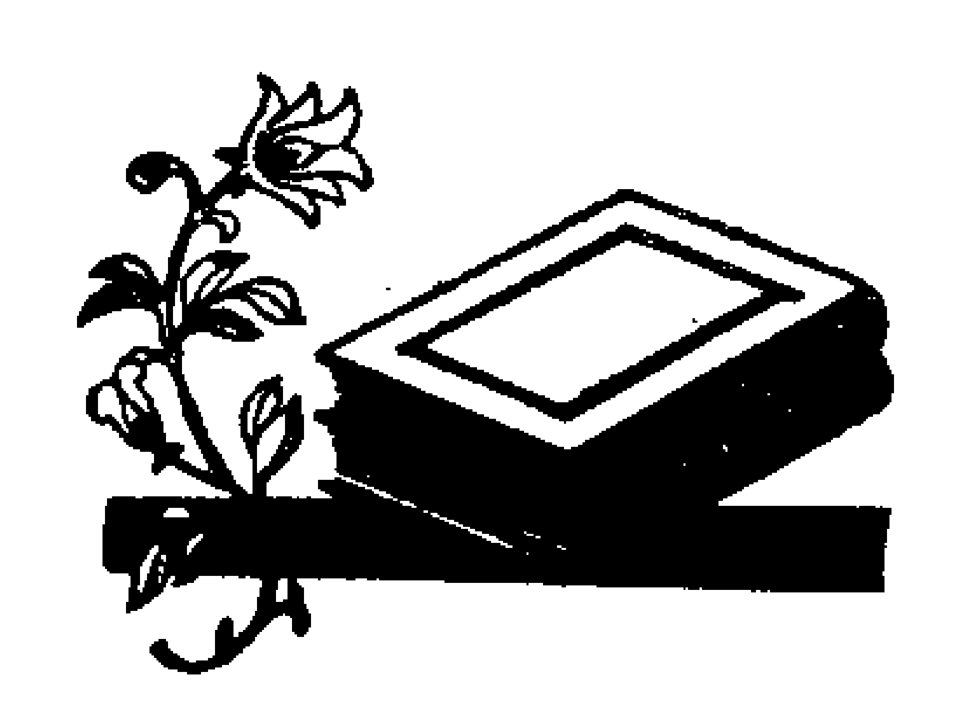
---

(١) سورة النمل ، الاية الكريمة : ٣٧ .

(٢) أمر أبو يوسف المنصور ولده ولي العهد السيد محمد بالرد على الخطاب ، ووقع المنصور على هذا الرد ، وأرسله الى ملك النصارى .

الوية الجهاد في إسبانية ، وأخذ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في الشرق •

وبعد أن سيَّر أبو يوسف المنصور جميع قواته الى الأندلس، عبر الى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ ، ولم يسترح بها إلا قليلا ، ثم بادر بالسير الى قشتالة خشية من نفاذ المؤن ، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم الى الجهاد ، وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولا الى اختراق قلب اسبانية وافتتاح طليطلة ، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة ، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قواه شمال قلعة رباح ، على مقربة من قلعة الأرك Alarcos [(١)] ، اتجه بجيشه الى ذلك المكان • ولما وصل الى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى ، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة !!



---

(١) يوسف اشباخ ، ج : ٢ ، ص : ٨٣ •

المعركة

حصن الأرك

✶ فاجا ابو يوسف المنصور بجنوده المتوثبين الاعداء ، فضمن عنصر المفاجاة ودعم النصر بفضل خطة وضعها الزعيم الاندلسي أبو عبد الله بن صناديد ..

« الأرك » : حصن على بعد عشرين كيلو متراً الى الشمال الغربي من قلعة رباح ، على أحد فروع نهر وادي آنة ، ومحلها اليوم : Sta Maria de Alarcos ، غرب المدينة الاسبانية الحديثة : Giadad Real « المدينة الملكية »[1] . والأرك نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه .

تجهز الفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الاسلامي منذ سمعه بعبور الموحدين ، وطلب العون من ملكي ليون ونبارة ، وسار مسرعا ، ونزل في الأرك ، ونزل أبو يوسف المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي ، ومرّت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك .

وسأل أبو يوسف المنصور مجلسه الاستشاري عن الخطة

---

(١) راجع المصور لمعرفة مواقع الاماكن .

التي يجب اتباعها في المعركة[1] ، وسمع رأي الجميع ، ثم التفت الى زعماء الاندلس ، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد ، وقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب ، وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع ، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم ، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة لتسيير دفة الحرب ، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة ، ولا سيما في معركة شنترين ، وأنه يجب أن يختار أمير المؤمنين أبو يوسف المنصور قائدا عاما للجيش كله ، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيى بن أبي حفص ، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع •

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم ، وهو مالم يتبع دائما ، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولّى الأجانب قيادتهم ، على أنهم مع ذلك كانوا يؤلفون قسماً مستقلا من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص ، ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة

(١) ان أبا يوسف المنصور بعكس أبيه « يوسف بن عبد المؤمن » الذي كانت أكبر اخطائه توليه جميع الامور بنفسه ، وعدم استشارة الناصحين • اما ابو يوسف المنصور فالملاحظ أنه اعتبر من مصير أبيه ، فهاهو يعقد مجلسا استشاريا يضع معه خطةالمعركة•

الجيش الرئيسية ، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول ، وأما بقيــة الجيش ، وهي المؤلفة من قبائل البربر ، ومعظمهم من غير النظاميين ، وجمهــرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين ، فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين ، تقوم بالعون والامداد • أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحرسه أن يرجح كفة الموقعة كلها ، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتعبين ، ويبادر بحضوره الى تدعيم النصر المكسوب ، كل هذه الآراء أبداهــا الزعيم الأندلسي ، وأعجب أبو يوسف المنصور بها ، فوافق عليها ، وأمر بتنفيذها[1] •

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو ملك قشتالة يجدّ في الأهبة ، واستطاع أن يحشد قوات هائلة من مملكته الصغيرة ، كما قدم إليه فرسان قلعة رباح ، وفرسان الداوية ، واستطاع أن يحشــد مائة ألف مقاتل في رواية ، وأكبر عدد ذكرته الروايات ثلاثمائة ألف مقاتل اجتمعوا إليه[2] • ولمعرفته بأهمية الموقف ، وعظم المعركة ، ولمعرفته أيضــا بامكانات المسلمين ، وبمــا حشــده الموحدون الأندلسيّون ، طلب الى قريبيــه ملكي ليــون ونافار تنــاسي الخصومات التي فرقت بينهما من قبل ، وأن يضما قواهما الى

---

(١) راجع « روض القرطاس » ، ص : ١٤٧ ، حيث يورد هذه الاخبار بالتفصيل.

(٢) جاء في بغية الملتمس لابن عميرة : كان جيش الفونسو الثامن ينوف على خمسة وعشرين الف فارس ، ومائتي الف راجل ، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم ، وأعدوا أموالا ، فهزمهم الله تعالى . « ص : ٤٥/٤٦ » .

قوته ، ليلقى الجميع أعـداء دينهم مجتمعين ، فوعداه بالعـون والسير إليه يدفعهما فيما يبدو تحريض الأجناد والشعب والقسس، أكثر مما تدفعهما الرغبة الخالصة لمساعدة ألفونسو • وجمعا الجند فعلا ، وتوليا القيادة بنفسيهما ، ولكنهما تحركا في كثير من البطء ، حتى أن ملك قشتالة أخذ يشك بحق في صدق نيتهما ، وكاد يعتقد أنهما يضمران من العدوان ضد قشتالة ، أكثر مما يحفزهما من رغبة في محاربة المسلمين ، ورأى إزاء هذا الريب أن أفضل مايجب عمله هو أن يترك أساليب الإسبان القديمة في الحرب ، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع بالقلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب ، إما لنفاد المؤن ، أو لتفشي الأمراض ، أو لحلول الشتاء ، ولكن ألفونسو رأى ــ وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة ــ أنه من العار أن ينسحب أمام العدو ، خصوصا وقد كان يؤمل أنه يستطيع بمفرده أن يحرز نصرا باهرا على جيش الموحدين •

وفي ٩ شعبان ٥٩١ هـ / ١٨ تموز (يولية) ١١٩٥ م كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة • وفي صباح هـذا اليوم ، أذاع أبو يوسف المنصور بين سائر الجند ، لكي يذكي حماستهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة ، مفاده أنه رأى في نومه فارسا بهي الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء ، وبيده راية خضراء ، وقد انتشرت في الآفاق ، يقول له : إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله •

ونظم أبو يوسف المنصور جيشه ، الذي قدرته الروايات الأوربية الكنسية بستمائة ألف مقاتل ، وهذا بالطبع مبالغ فيه ؛ فقد كان يساوي على الأغلب عدد جيش النصارى ، فاحتل الموحدون ــ أو القوات النظامية ــ القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أعقاب فاتحي المغرب المسلمين ، ومعهم زناته وبعض القبائل البربرية الأخرى تحت ألويتهم الخاصة ، واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد . وتولى أبو يوسف المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي ، ودفعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ، ولا سيما حملة النبال ، تحت أعلامها الخضراء ، وهو لون الموحدين ، الى المقدمة ، لتفتتح القتال ، وهم جميعا يضطرمون شوقا الى الفوز بتاج الاستشهاد .

وفي البيان المغرب لابن عذاري : « حين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم : « اغفروا له ــ فان هذا موضع غفران ــ وتغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم[1] » ، فبكى الناس واعظموا ماسمعوه من أميرهم المؤمن المخلص ، وماجرى إليه من حسن معاملتهم وعدله بينهم .

وقام خطيب وحرض على الجهاد وفضله ومكانته وقدره ، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم ، وخلصت لله ضمائرهم

---

(١) البيان المغرب ، ص : ١٩٤ .

سرائرهم ، وقويت أنفسهم وعزائمهم ، وتضاعفت نجدتهم واقدامهم •

وكذلك نظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة الى القتال ، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب ، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال ، ولا يمكن الوصول إليه إلاّ بواسطة طرق ضيقة وعرة ، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عاليا ، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال •

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة الى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة ، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على أثر كلمات قائدها الملتهبة ، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من علٍ •

وفي البيان المغرب في معرض الحديث عن القشتاليين ، لما رأوا الجيش الاسلامي في سهل الأرك ، وهم في المرتفع المشرف عليه : « فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر ، أسرابا تتلوها أسراب" ، وأفواجا تعقبها أفواج" ، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج ، فدفعوا حتى انتهوا الى الأعلام ، فتوقفت كالجبال الراسيات ، فمالوا على المسيرة ، فتزحزح قوم من المُطَّوِّعة وأخلاط من السوقة والاحرجة ، فصعد غبارها الى الجو ، فقال « أبو يوسف » المنصور لخاصَّته ومن طاف به : جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ، ثم تحرك

وحده وترك ساقته على حالها ، وسار منفردا من خاصته مقدما بشهامته ونجدته ، ومر على الصفوف والقبائل ، وألقى اليهم بنفسه كلاما وجيزا في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه ، وعاد الى موضعه وساقته[1] » .

لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفدوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم العنيف ، ولما عززت صفوف القشتاليين بقوى جديدة ، هجموا للمرة الثالثة ، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها ، وقتلوا قسماً منها ، وأرغم الباقون على التراجع ، واستشهد آلاف من المسلمين في تلك الصدمة ، منهم القائد العام أبو يحيى بن أبي حفص ، الذي سقط وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، واعتقد النصارى أن النصر قد لاح لهم بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين ، ولكن الأندلسيين وبعض بطون زناته ، وهم الذين يكونون الجناح الأيمن ، هجموا عندئذ بقيادة أبي عبد الله بن صناديد على قلب الجيش القشتالي ، وقد أضعفه تقدم الفرسان القشتاليين ، وكان يتولى قيادته ملك قشتالة نفسه ، يحيط به عشرة آلاف فارس فقط ، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح ، فلقي ألفونسو المسلمين بقيادة ابن صناديد دون وجل ، ونشبت بين الفريقين معركة حامية استمرت سويعات ، واستبدل النقص في العدد ، بالاقدام والشجاعة ، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية ، ورد تقدم الفرسان

---

(١) البيان المغرب ، ص : ١٩٤/١٩٥ .

القشتاليين واضطرهم الى الفرار في غير انتظام ، لم يغادر ألفونسو وفرسانه عشرة الآلاف مكانهم في القلب ، ذلك لأنهم أقسموا جميعا بأن يموتوا ولا يتقهقروا ، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار ، وأرجاء المكان تدوي بوقع حوافر الخيل ، وقرع الطبول ، وأصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند ، وأنين الجرحى[1] •

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة • وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية ، أو يلجئها الى الفرار ، فنفذ الى قلب الفرسان النصارى ، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه : « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله » • ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب ، ومواجهته لخطر الهلاك والسحق المحقق ، أن ينقذ نفسه بالفرار ، وأن يتحمل عار الهزيمة ، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم ، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيدا عن الميدان ، وأن تنقذ بذلك حياته •

---

(١) تاريخ الاندلس لاشباخ ، ج : ٢ ، صفحة : ٨٦ وما بعدها ، وجاء في « نفح الطيب » ، ج : ٢ ، ص : ١٣٧ : « نجا الفنش ـ الفونسو ـ ملك النصارى الى طليطلة في أسوأ حال ، فحلق رأسه ولحيته ، ونكس صليبه ، وآلى أن لا ينام على فراش ، ولا يقرب النساء ، ولا يركب فرسا ولا دابة ، حتى يأخذ بالثار ، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ، ويستعد ، ثم لقيه يعقوب وهزمه وساق خلفه الى طليطلة وحاصره ورمى عليها بالمجانيق وضيق عليها » •

نتائج معركة الأرك

★ سمت وارتفعت شـهرة الموحدين الحربية في كل مكان بعد انتصار الارك .

تذكرنا موقعة الأرك عام ٥٩١ هـ بأختها الزلاقة عام ٤٧٩ هـ، فالاثنتان من أيام الاسلام المشهودة ، وكلتاهما مما اعتز به الاسلام وعلت كلمته .

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع ، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرة الفروسية الاسبانية ، وغنم المسلمون معسكر الاسبان بجميع مافيه من المتاع والمال ، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك ، وقلعة رباح المنيعتين[1] .

وسرعان مارفع انتصار الأرك شهرة الموحدين الحربية في كل مكان ، وأمر أبو يوسف المنصور باذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع أنحاء مملكته الشاسعة ، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع

---

(١) روض القرطاس : ص : ١٤٥ ، ابن الاثير « الكامل في التاريخ » ، جـ : ١٢، ص : ٥٥/٤٤ ، ابن خلدون : ٢٤٥/٦ .

باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في اشبيلية ، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر[1] ، كما بنى حصنا كبيرا في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة .

ومما يذكر هنا بالثناء لزعيم الموحدين — كما يقول يوسف أشباخ — أنه لم يشن صفحة نصره الرائع بالالتجاء الى قسوة لا مبرر لها في معاملة الأسرى والعزل ، فقد أسر المسلمون في موقعة الأرك عشرين ألفا ، ولم يشأ أبو يوسف المنصور جريا على سنن الحرب المتبعة يومئذ أن يقتلهم أو يرسلهم عبيدا الى افريقية ، بل آثر أن يمنحهم جميعا الحرية دون افتداء ، وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين ، واعتبروه خطأ . وتقول الرواية العربية انه ندم على تصرفه فيما بعد ، فهؤلاء دون شك قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر قشتالة فيما بعد[2] .

ولم يبلغ سلطان الموحدين قط مابلغه عقب موقعة الأرك ، وقد اجتمعت عوامل عدة لتحدث هذه النتيجة ، فالظروف الدولية كانت مهيأة للموحدين ، فالممالك النصرانية الخمس لا تنسيق بينها ، بل ان قشتالة التي كاد أن يقضي عليها الموحدون غدت فريسة حرب شهرتها عليها ليون وناقار ، وكانت هاتان الدولتان تقومان في الواقع عندئذ بمفاوضات سرية لكسب ود الموحدين .

---

(١) حول المسجد الى كنيسة عام ١٢٤٨ م بعد استيلاء النصارى على اشبيلية، اما حولت المنارة الى برج ناقوس .

(٢) مع خسارة الطرفين الكبيرة لحماسهما ، فمن العوامل الرئيسية للهزيمة ، عدم انتباه القوات النصرانية الى قوى المسلمين الاحتياطية .

وكانت أراغون قد ادركها الوهن عقب وفاة ملكها ألفونسو وفرقتها الحروب الأهلية ، أما البرتغال فلم تكن تستطيع دون معاونة خارجية أن تقوم بمشروع ما ، وإن كان مما يجب ذكره أنها كانت مع ذلك أشد الدول النصرانية وطأة في محاربة المسلمين .

ومع ذلك نقول إن القوة التي انتصر عليها الموحدون لم تكن قوة ضعيفة بسيطة مفككة ، على العكس تماما ، لقد كانت قوات القشتاليين متماسكة كبيرة مدربة لا تنقصها الروح المعنوية العالية، فنصر الموحدين نصر حقيقي ، نصر كبير على قوة كبرى من القشتاليين وفرسان قلعة رباح وفرسان الداوية ...

ورأى أبو يوسف المنصور بفضل الله ، أن ينتهز فرصة هذه الظروف السانحة ، فقام في أوائل سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية «استرامادورة» وعبر النهر الكبير « الوادي الكبير » في اتجاه نهر التاجة ، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع ، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة ، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظرا لهبوط معنويات جنده بعد الأرك ، ولقلة عددهم ، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولا اقتحام أسوارها المنيعة ، لكنه لم ينجح ، فعاد منسحبا جنوبا بسبب نقص التموين ، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك ، فدب المرض في صفوف الموحدين ، وكثر الموت بينهم ، فاضطر أبو يوسف المنصور الى الانسحاب بعد أن

وصل الى مقربة من ضفاف دويرة ، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش اسلامي ، وكانت حملتهم هذه آخر حملة اسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة .

واستطاع أبو يوسف المنصور أن يعرف من تجاربه أنه أيسر عليه أن ينتصر في موقعة أو يتوغل في أراضي العدو من أن ينتزع قلعة أحسن تحصينها . وأنه أيسر عليه أن يفتتح إسبانية على يـد النصارى أنفسهم ، وكان ملكا ناقار وليون قد عقدا معه حلفاً . وعمد ألفونسو ملك قشتالة الى مقاومة هذا المسعى فعقد في سنة ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على عدوه[١] .

ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في افريقية كانت تستدعي عودته الى مراكش ، ولما انتهى من اخماد الفتن رد السكينة والطمأنينة والأمن الى نصابها ، واستطاع دون مشقة أن يحمل جميع الولاة والقادة على الاعتراف بولاية عهد ولده الامير محمد أبي عبد الله ، واشركه معه من ذلك الحين في الحكم ، ولم يمض على ذلك قليل حتى مرض أبو يوسف المنصور وتوفي بقصره في مراكش في الأربعين من عمره ، وذلك في

---

(١) جاء في نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٤١٩ : وجاءته رسل الفونسو ـ الفنش ـ مصالحه وفيه يقول الشاعر :

أهل بأن يسعى اليـه ويرتجى ... ويزار من اقصى البلاد على الرجا
من قد غـدا بالمكرمات مقلدا ... وموشحا ومختمـا ومتوجـا
عمـرت مقامات الملوك بذكره ... وتعطرت منـه الرياح تارجا .

٢٢ ربيع الأول ٥٩٥ هـ / ٢١ كانون الثاني « يناير » سنة ١١٩٩ بعد أن حكم خمسة عشر عاما .

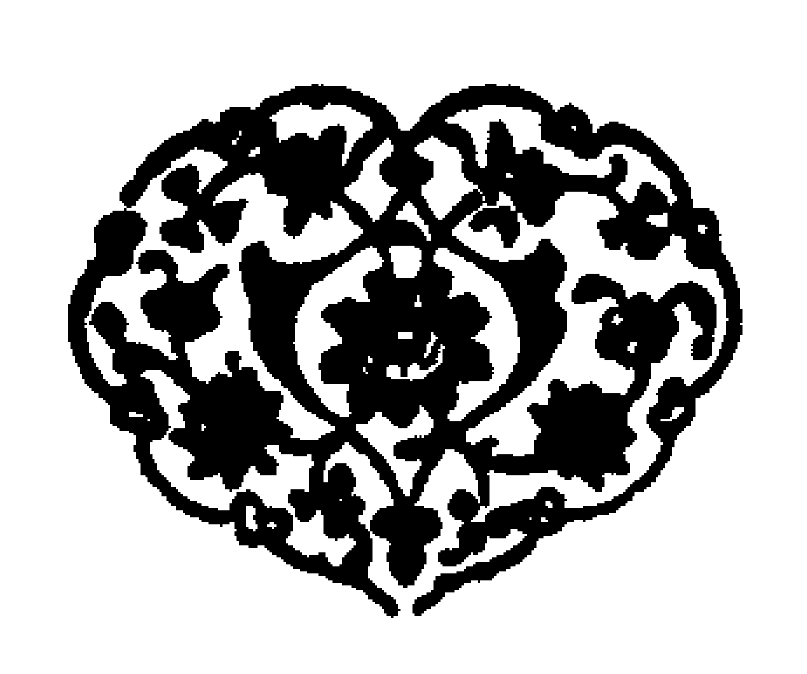
مجمل النتائج :

على أثر هزيمة الأرك تحرج مركز النصارى في اسبانيــة ، واشتد الخطر عليهم ، فقد عسكر المسلمون حول عاصمتهم ، ولم ينقذهم سوى اسراع زعيم الموحدين أبي يوسف المنصور بالعودة الى المغرب ، ثم موته الفجائي ، فقضي على خطط الموحدين الكبرى في الفتح . ولو سار ولده من بعده على سنته من الذكاء والقــوة والمقــدرة على كسب الفرص ، لانضوت اسبانيــة تحت لواء الموحدين ، فلقد كانت اسبانية في حينها مزيجا مضطربا من العناصر المتخاصمة ، ولو طال الأمر بأبي يوسف المنصور لكان بوسعه أن يحقق هذا باستغلال منازعات الملوك النصارى ، على الرغم من الجهود التي بذلها ألفونسو ملك قشتالة والبابا سلستان الثاني بجمع كلمتهم ، ولكن تلك الجهود لم تسفر عن نتائج كبيرة .

لقد نسب ألفونسو هزيمته الى تقاعس الجيش الليوني عن امداده ، ونحى عليهم باللوم ، وترتب على ذلك أن قامت بينهمــا خصومات انتهت بالحرب الصراح ، فانقض ألفونسو ملك قشتالة بجميع قواته على ليون . وبعد منازعات طويلة أصغت الممــالك النصرانية الى صوت السلام والوساطة البابوية ، في الوقت الذي نظم الموحدون أهباتهم الضخمة للاستفادة من هذا النزاع ، وكان

لا بد من عودة النصارى الى الاتحاد حتى لا تسقط اسبانية غنيمة في يد المسلمين ، وهنا فقط عقد ملكا ليون وقشتالة الصلح •

أما الخسائر المادية ، فقد جاء في نفح الطيب[1] مايلي : قتل من الفرنج ١٤٦٠٠٠ ، وأسر ٣٠ ألفا ، وغنم من الخيام ١٥٠٠٠٠ خيمة ، والخيل ٨٠٠٠٠ ، والبغال ١٠٠٠٠٠ ، والحمير ٤٠٠٠٠٠ (جاء بها الكفار لحمل اثقالهم لانهم لا إبل لهم) ، وزاد ابن خلكان: ٦٠٠٠٠ درع ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد •



---

(١) الجزء الثاني ، صفحة : ١٣٧ ، ط : دار الكتاب العربي – بيروت ، وزاد بقوله : « واما الجواهر والاموال فلا تحصى » •

نظرات في حياة أبي يوسف المنصور

✱ لقد كان بحق رفيع الخلق ، وجه عنايته الى الاصلاح ، فاستقامت الاحوال في ايامه وعظمت الفتوحات .

كان رحمه الله من أعظم ملوك الموحدين وأبرعهم وأرفعهم خلالاً ، وقد سما بدولة الموحدين الى ذروتها ، ولم يشد أمير من أسرته مثل ماشاد من المساجد والأبنية الفخمة ، لقد كان بحق رفيع الخلق ، قلما يعرف الثأر وكثيرا مايؤثر الصفح ، وهي فضيلة يندر وجودها في النفوس المغربية الجائشة ، ويذكر بالفخر جلوسه للمظالم وسماعه من شعبه شكواه ، لرفع أية مظلمة ، ولاحقاق الحق والعدل .

كما كان كثير الحب للعلماء ، يثيب علمهم وفضلهم بأكرم مايهب الملوك ، ويتقرب من الأولياء والصالحين ، وكان يبدي في اختيار وزرائه ذكاء وبعد نظر ، وينتخب أكفاء الأشخاص لجميع فروع الادارة ، وكان على صلات وثيقة مع معظم الملوك المسلمين في عصره .

جاء في وفيات الأعيان[1] : « وكان قد أرسل إليه السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رسولا من بني منقذ في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ليستنجد على الفرنج الواصلين من بلاد المغرب الى الديار المصرية وساحل الشام ، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين ، بل خاطبه بأمير المسلمين ، فعز ذلك عليه ولم يجبه الى ماطلبه منه . والرسول المذكور هو شمس الدولة أبو الحارث عبد الرحمن بن نجم الدولة أبي عبد الله محمد بن مرشد[2] » .

فلماذا لم يستجب اليه أبو يوسف المنصور ؟

لقد فتح صلاح الدين القدس عام ٥٨٣ هـ ، وقرر متابعة الحرب ضد الصليبيين حتى يطهر سواحل بلاد الشام منهم ، وكان أسطوله أضعف من أن يجابه بحرية الصليبيين الذين كانوا يستفيدون ويستعينون بأساطيل جنوة ، والبندقية ، فأرسل صلاح الدين شمس الدولة برسالة مع هدايا قيمة أهمها مصحفان كريمان ، ويقول المؤرخون إن أبا يوسف المنصور لم يجبه الى طلبه للسببين التاليين :

١ ــ لأنه لم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين . وفي رأيي هذا السبب غير كاف ، لقد ذكر صاحب كتاب « الذيل على الروضتين »

---

(١) راجع الجزء السابع ، صفحة : ١٢ .

(٢) ذكره الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في كتاب « الوفيات » ، وقال : توفي في سنة ستمائة بالقاهرة ، ومولده في شيزر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وله نظم ونثر .

صفحة : ١٦ : أنه خاطبه بلقب « أمير المسلمين »[1] ، كما ذكر ذلك ابن خلكان أيضا •

٢ ـ توسع صلاح الدين في غرب مصر ، بحروب قام بها أخوه تقي الدين ثم مولاه قراقوش التقوي الذي حالف بعض أعداء الموحدين كعرب بني هلال ، وابن غانية الذي كان يدعو الى المرابطين ، وهذا سبب وجيه •

ونحن نرجح أن أبا يوسف المنصور لم يلب طلب صلاح الدين بمدد حربي ، لانشغاله بحرب النصارى في اسبانية وشواطىء البرتغال • ومن البدهي أن يكون أسطول أبي يوسف المنصور موزعاً في هذه الظروف بين عدة ثغور دفعا لكل هجوم منتظر ، وان كان من الممكن أن يضحي بقسم من هذا الاسطول لانجاد المسلمين في الشرق • وابن خلدون كان يرى أنه ربما كان قد بعث بعد بمائة وثمانين قطعة من أسطوله ، فتمكن من منع النصارى عن سواحل الشام •

ويقول يوسف اشباخ بهذا الصدد : لم تتم المحالفة وان كان الرسول قد استقبل باكرام وحفاوة ، ووصله سلطان الموحدين من أجل قصيدة من أربعين بيتا نظمها في مديحه ، بهبة قدرها

---

(١) ابن خلكان ، ج : ٧ ، ص : ١٢ •• وكذلك في نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٤١٩/٤٢٠ : (وكان عنوان الكتاب الذي ارسله صلاح الدين « الى امير المسلمين » • وفي أوله « الفقير الى الله تعالى يوسف بن أيوب » وبعده من انشاء الفاضل ••• ثم : « الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنيفية ما استعمر الارض ، وأغنى من سأله الغرض ، وأجزى من أجرى على يده النافلة والفرض ، وزين سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض » •

أربعون ألف دينار ، هي كما قال أبو يوسف المنصور : رمز التقدير وبراعة في النظم(١) .

ووصف المؤرخون أبا يوسف المنصور بما يلي :

« وكان ملكاً جواداً عادلا متمسكاً بالشرع المطهر ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما ينبغي من غير محاباة ، ويصلي بالناس الصلوات الخمس ، ويلبس الصوف ، ويقف للمرأة وللضعيف ويأخذ لهم الحق ، وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ليترحَّم عليه من يمر به(٢) » .

وكان يشدد في إلزام الرعية باقامة الصلوات الخمس ، وقتل في بعض الأحيان على شرب الخمر ، وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم ، وأمر برفض فروع الفقه ، وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحدا من الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والاجماع والقياس(٣) . ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة : أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر ، ومحي الدين بن العربي وغيرهم ..

---

(١) سنورد بعض ابياتها عند الحديث عن تذوقه للادب والشعر .

(٢) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ج : ٧ ، ص : ١٠ .

(٣) لقد اباح بذلك الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه . وابطل التقليد ، جاء في الاعلام ج : ٨ ، ص : ٢٠٣ : « أبطل التقليد ونهى الفقهاء عن الافتاء الا بكتاب الله والسنة ، واباح الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه » .

وكان يعاقب أيضا على ترك الصلاة ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة اليها ، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشته عزّره تعزيرا بليغا ، وهذا يثبت أن الرجل كان شديداً في دينه .

روى ابن خلكان عنه حكاية رائعة وهي : أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد صاحب افريقية ، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور ، وأقامت عنده ، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت الى بيت أخيها ، فسيَّر الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه ، وشكا الامير عبد الواحد ذلك الى قاضي الجماعة بمراكش ، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان ، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له : ان الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله ، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور . ومضى على ذلك أيام . ثم ان الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش ، وقال له : أنت قاضي المسلمين ، وقد طلبت أهلي فما جاؤوني ، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له : يا أمير المؤمنين ، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية ، فسكت الأمير يعقوب . ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء الى خدمة الأمير أبي يوسف المنصور فقال له : يا قاضي المسلمين ، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة ، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم . فاجتمع القاضي بالأمير وقال له : يامولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله ، فإما أن تسيِّر إليه أهله وإلا فاعزلني عن

القضاء . فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور ، ثم قال : يا أبا عبد الله ما هذا إلا جدّ كبير ، ثم استدعى خادما وقال له في السر : تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه ، فحُمِلَت إليه في ذلك النهار . ولم يتغيَّر على القاضي ولا قال له شيئا يكرهه ، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهَّر وانقاد لأوامره ، وهذه حسنة تُعَدّ له ، وللقاضي أيضا ، فانه بالغ في إقامة منار العدل[1] .

وروعة القصة في اجبار اخته على العودة الى بعلها ، وبعدم تغيّره على القاضي الذي ألحّ في إقامة العدل .

وكان محسناً محباً للعلماء مقرّباً للأدباء مصغيا الى المدح مثيبا عليه ، وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي كتابه الذي سمّاه « صفوة الأدب وديوان العرب » في مختار الشعر ، وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كل الاحسان . ولما مدحه ابن المنقذ رسول صلاح الدين الأيوبي في قصيدة عدتها أربعون بيتاً ، اعطاه بكل بيت ألفاً ، ومن القصيدة :

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته ... الى بحر جود ما لأخراه ساحلُ
الى معدن التقوى الى كعبة الندى ... الى من سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل ... الى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصديك العلا فبلغتها ... وأدنى عطاياك العلا والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانياً ... تبلغك الآمال ما أنت آمل

---

(١) وفيات الاعيان ، جـ : ٧ ، ص : ١٠/١١ .

وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مُجْبَر الأندلسي المرسي ، ودخل الأديب أبو اسحاق ابراهيم بن يعقوب الكانمي[1] الشاعر على أبي يعقوب المنصور فأنشده :

أزالَ حجابه عني وعيني تراه من المهابةِ في حجابِ
وقرّبني تفضّلُه ولكن بعدتُ مهابةً عند اقترابي

وأخيراً .. إلى أبي يوسف يعقوب المنصور تنسب الدنانير اليعقوبية المغربية . وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين (الحمد لله وحده) ، فجرى عملهم على ذلك ، وبنى كثيراً من المدارس والمساجد في بلاد افريقية والمغرب والأندلس . وبنى المستشفيات للمرضى والمجانين وأجرى عليها الأرزاق ، وبنى الصوامع وقناطر كثيرة ، وحفر الآبار للماء ، وهو الذي أمر ببناء « رباط الفتح[2] » .

وآل الى أبي يوسف مصحف عثمان الذي كان في قرطبة ، فاعتز به ـ كما اعتز به كل الموحدين ـ واعتنى به غاية الاعتناء ، وحمله في اسفاره للتبرك به ، وأمر بتحليته ، قال الشاعر :

---

(١) كانم : بكسر النون ، اسم بلدة بنواحي غانة .

(٢) بناها على هيئة الاسكندرية في اتساع الشوارع ، وحسن التقسيم ، واتقان البناء وتحسينه وتحصينه ، وبناها على البحر المحيط على نهر سلا مقابلة لها من البر القبلي . » وفيات الاعيان ، ج : ٧ ، ص : ٩ « .

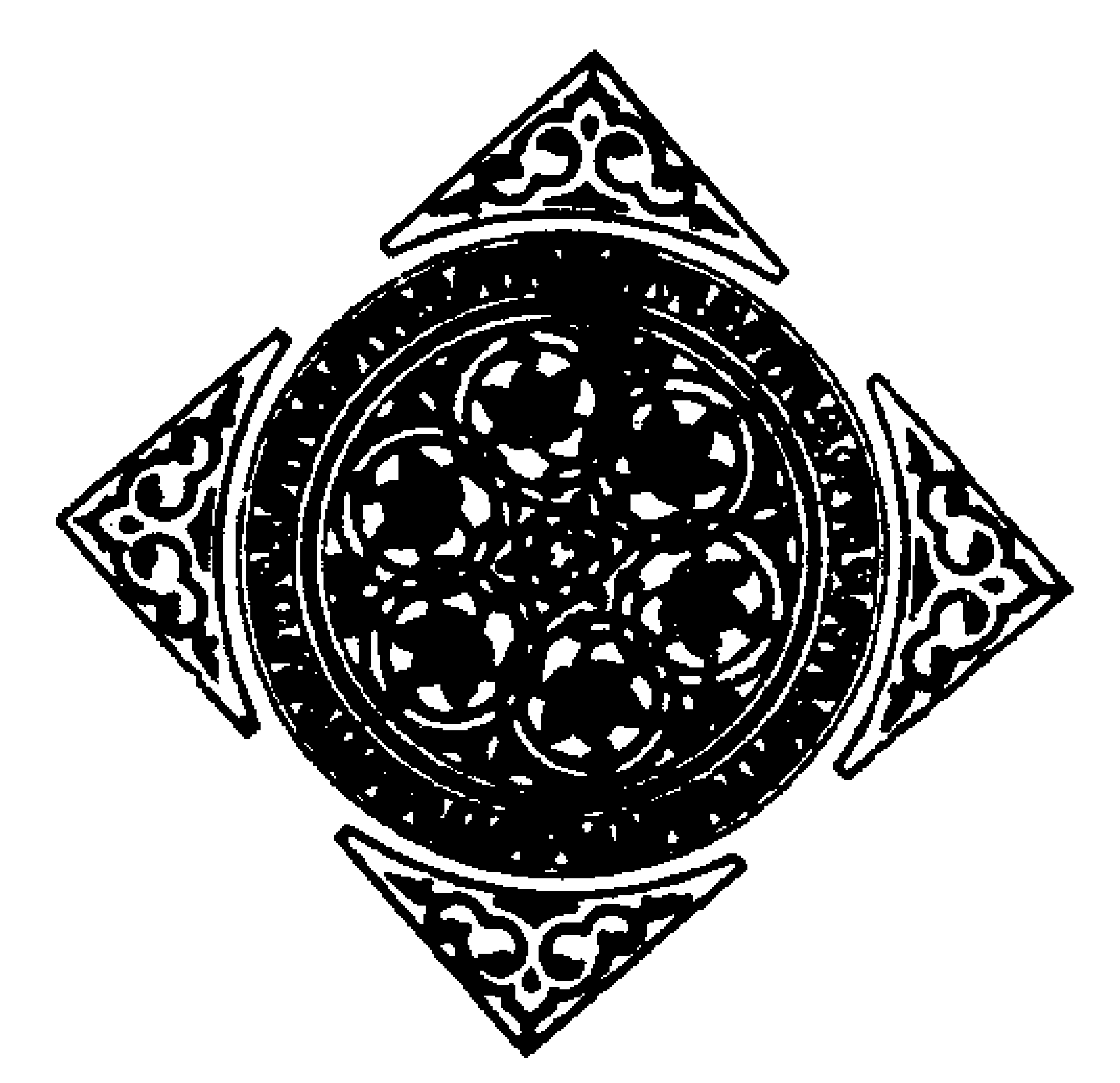
وَنَفَّلْتَهُ[1] من كل ملك ذخيرة   كأنهم كانوا برَسْم مكاسبه

فإن ورث الأملاك شرقاً ومغرباً   فكم قد أخَلّوا جاهلين بواجبه

وكيف يفوت النصر جيشاً جعلته   أمام قناه في الوغى وقواضبه

وألبسته الياقوت والدر حلية   وغيرك قد رواه من دم صاحبه[2]

وهذا المصحف وقع للموحدين من خزائن بني أمية يحملونه بين أيديهم أنى توجهوا على ناقة حمراء عليها من الحلي النفس وثياب الديباج الفاخرة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها وعن يمينه ويساره عصيان عليهما لواءان أخضران، وموضع الأسنة منها ذهب ، وخلف الناقة بغل محلى أيضا عليه مصحف آخر يقال انه بخط ابن تومرت ، هذا كله بين يدي الخليفة الموحدي يتوارثونه .



(١) أعطاكه الله نفلا وخصّك به .

(٢) اشارة الى دم عثمان رضي الله عنه الذي اصاب بعض صفحات القرآن الكريم الذي كان يقرأ به عند استشهاده ، « راجع : نفح الطيب جـ : ٢ ، ص : ١٣٧ ، طبعة : دار الكتاب العربي ـ بيروت » .

خاتمة

الموحدون بعد أبي يوسف المنصور

✱ جدد ابو يوسف المنصور للاندلس الرونق الذي كان لها زمن الحكم الاموي ، واعاد ذكرى صقر قريش وعبد الرحمن الناصر ، لقد اعتنى كما اعتنى عبد المؤمن من قبل وابنه يوسف بالعلوم والمعارف والصناعة ، كما اسس المدارس العامة والمستشفيات ، وغمر العلماء بالعطاءات الجزيلة .

يروي ابن أبي زرع أن المنصور بفضل الله لما أشرف على الموت قال : ماندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها : الأولى ادخال البدو ـ العربان ـ من افريقية الى المغرب ، مع أني أعلم أنهم أهل فساد ، والثانية بناء « رباط الفتح » ، انفقت فيه بيت المال وهو بعد لا يعمَّر ، والثالثة إطلاق أسارى الأرك ، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم .

وصدقت فراسة أبي يوسف المنصور في الأولى والثانية ، وكُتب لرباط الفتح أن يعمَّر ، ولكن بعد قرون من وفاته ، حيث غصَّت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس[1] .

---

(١) المغرب عبر التاريخ ، ج : ١ ، ص : ٢٨٩ ، (بتصرف) .

روى ابن الأثير وابن خلكان روايات مختلفة عن مصير أبي يوسف المنصور بعد رجوعه من الأندلس ، وكنا قد قلنا إنه أصيب بمرض توفي على أثره في مطلع سنة ٥٩٥ هـ ودفن بتينمل وهذا الثابت. وقد كان يريد التوجه الى مصر حتى يغيِّر مناكيرها، وكان يقول : نحن إن شاء الله مطهروها .

فمن الروايات ماتقول : إنه ترك ماكان فيه وتجرد وساح في الأرض حتى انتهى الى بلاد الشرق وهو مستخف لا يعرف ، ومات في الشرق .

ومن الناس من قال : إنه لما رجع الى مراكش ، عاد الى الأندلس مجاهداً فيها متنكراً حتى مات .

ومنهم من قال : ذهب الى الشرق حاجاً ، ولم يعد الى المغرب، بل أمَّ سورية ، وبالقرب من المجدل ، البليدة التي من أعمال البقاع العزيزي ، قرية يقال لها « حَمَّارة » ، والى جانبها مشهد يعرف بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب ، وكل أهل تلك النواحي متفقون على ذلك ، وليس عندهم فيه خلاف ، وهذا القبر بينه وبين المجدل مقدار فرسخين من جهتها القبلية الى الغرب قليلا .

وعلى كل .. هذه الروايات التي نسجت حول موته حكايات مختلفة ، تدل على التأثير الذي تركه أبو يوسف المنصور بفضل الله في نفوس الناس[1] .

---

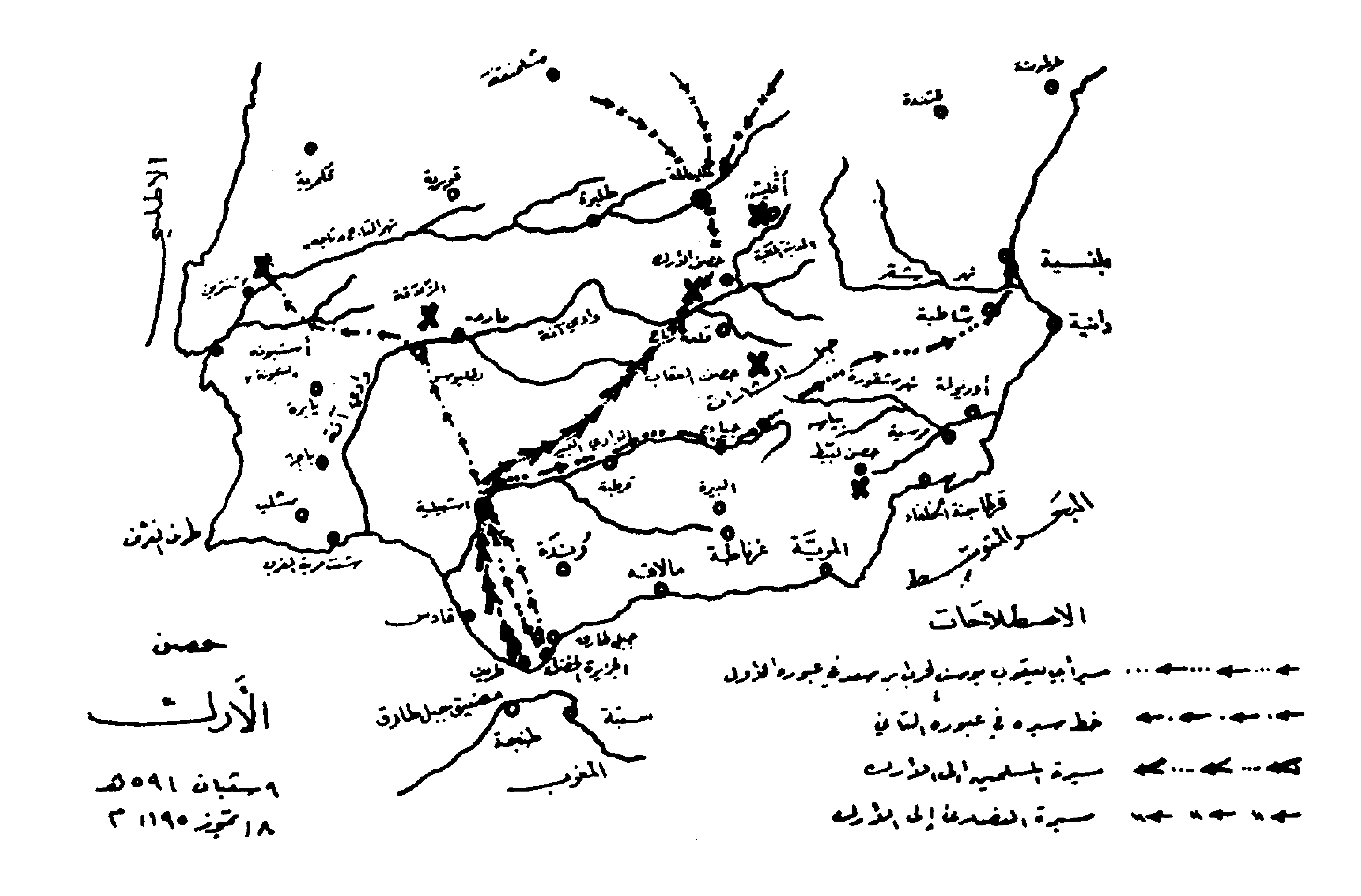
(١) والمقري في نفح الطيب رفض الروايات التي قالت عن المنصور انه تجرد وساح في الارض ، ومات في الشرق ، وقال انها خيال .

ولما حضرت الوفاة الأمير أبا يوسف يعقوب المنصور عهد بالملك لابنه أبي عبد الله محمد الذي تلقب بالناصر، وفي عهده كانت وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ .

وفي الجزء العاشر من هذه السلسلة سنرى أحداث هذه الوقعة، ونرى سيرة قائدها محمد الناصر إن شاء الله .

والحمد لله رب العالمين .





حصن
الأرك
٩ شعبان ٥٩١ هـ
١٨ تموز ١١٩٥ م
الاصطلاحات
سير أبو يعقوب يوسف لحرب ... في عبوره الأول
خط سيره في عبوره الثاني
سيرة المسلمين إلى الأرك
سيرة النصارى إلى الأرك
الأطلسي
البحر المتوسط
إشبيلية
قرطبة
غرناطة
المرية
مالقة
رندة
البيرة
قادس
طريف
الجزيرة الخضراء
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبتة
طنجة
المغرب
شلب
باجة
يابرة
أشبونة
شنترين
طليطلة
طلبيرة
قورية
ماردة
بلنسية
شاطبة
دانية
أوريولة
مرسية
قرطاجنة الحلفاء
أقليش
قلعة رباح
حصن العقاب
طرف الغرب
شنت مرية الغرب

المحتوى

صفحة

